

التصوف الإسلامي وفلسفة التربية المرجعية / المنهج / المفاهيم.

د. محمد حفيان¹

لقد كانت التربية الصوفية موضوع جدل ولا زالت بين مؤيد متحمس لكن من خارج التجربة ومن خارج مجالها العلمي والعملي، وبين معارض هو الآخر من خارج المجال نفسه، مما صبغ تلك " المعارف " المتأناة من ذلك الجدل بصبغة أيديولوجية قديمة نزاعية أكثر مما هي علمية وموضوعية. غير أن هناك نزعتين أخريين - كانتا ولا زالتا - تنتجان المعارف العلمية حول الموضوع، إما عن تجربة عملية وإما عن تأمل نظري. وهاتان النزعتان هما موضوع الاهتمام والدراسة، لأن وجهتي نظريهما حول التربية الصوفية وحول التصوف ككل حتى وإن اختلفتا حد التناقض - في كثير من المسائل - إلا أنهما ظلتا حريصتين على أن لا يخرج ذلك الاختلاف عن حدود الالتزامات العلمية.

ولعل أول مسألة خلافية أثرت، كانت حول مرجعية التربية الصوفية، من حيث مبادئها ومفاهيمها وقيمها الأخلاقية وأهدافها وهل هي من صميم الدين الإسلامي أم هي من تأثيرات عقائد وفلسفات وافدة ؟ ولماذا التربية الصوفية وليس التربية الإسلامية ؟ ألا يكفي القول بالتربية الإسلامية عن التربية الصوفية ؟ وهل في التربية الصوفية ما يبرر هذا التخصيص ؟

الواقع أن هذه التساؤلات، هي نفسها التساؤلات التي أثرت حول التصوف ذاته، باعتباره تربية وسلوكاً في المبدأ والمآل، لذلك فإن حديثنا عن التربية الصوفية أو السلوك الصوفي، هو حديث عن التصوف وما يقال عن التصوف من حيث المرجعية والأهداف يقال عن التربية الصوفية أو السلوك الصوفي، إذ أن التصوف ليس فلسفة مفارقة بل هو فلسفة عملية تطبيقية بل أن مفهوم الجدلية ليتحقق

¹ أستاذ محاضر شعبة الفلسفة جامعة سعيدة الجزائر

بأنصع ما يكون التحقق في التصوف بوصفه علماً وعملاً، فالعمل أو السلوك هو تطبيق لعلم سابق، وفي الوقت نفسه، منتج لعلم لاحق، وهكذا...علم فسلوك، وسلوك فعلم...مصادقاً لقوله صلى الله عليه وسلم " من عمل بما يعلم علمه الله علم ما لم يعلم" ومصادقاً لقوله تعالى " واتقوا الله ويعلمكم الله". لذلك كانت مصطلحات: السلوك والسير والسفر والطريق والترقي والحال والمقام دالة كل الدلالة على هذه الحركة ودالة في الوقت نفسه على غائيتها وقصديتها التي هي معرفة الله. ومعلوم أن معرفة الله هي الغاية من خلق الانسان مصداقاً لقوله تعالى " وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون". قال ابن عباس رضي الله عنهما " الا ليعرفون"، لأن العبادة الحقيقية لا تتحقق الا بالمعرفة الحقيقية والمعرفة الحقيقية لا تنأى الا عن العبادة الحقيقية، وهذا هو موضوع التصوف في نظر أعلامه وعلمائه وهو تحقيق الإحسان المشار إليه في حديث جبريل المشهور. ومن هنا كانت ثنائية الشريعة / الحقيقة، وكان التصوف هو حقيقة العبادة، وكانت الشريعة هي ظاهر العبادة. ومن هنا كان للتربية الإسلامية منهجان :

منهج يتوخى حقيقة العبادة، وهو منهج شيوخ التربية الصوفية.
ومنهج يتوخى ظاهر العبادة. وهو منهج فقهاء الشريعة (أهل الرسوم).
التصوف الإسلامي وإشكالية التأصيل:

لقد أصبحت إشكالية تأصيل التصوف الإسلامي إشكالية ممتدة من القرن التاسع عشر مع بداية اهتمام المستشرقين - مروراً بقبيل النصف الثاني من القرن العشرين - مع بداية اهتمام الدارسين العرب، وانتهاءً إلى اللحظة الراهنة. ولا زالت إلى الآن هي الإشكالية العامة التي تؤطر البحوث المشتغلة على الخطاب الصوفي الإسلامي فلسفةً ومصطلحاً وتاريخاً.

والواقع، أن هذه الإشكالية لم تطرح بتاتاً قبل ذلك، على امتداد كل تاريخ التصوف الإسلامي، وحتى الفقهاء (علماء الرسوم) حينما ناصبوا العداء للمتصوفة وكفّروا بعضهم كان ذلك بسبب ما بدر من هؤلاء من شطحات ولم يكن عداءً

للتصوف في ذاته، ولا تكفيراً لكل رجالاته. ونجد الموقف ذاته عند مؤرخي التصوف والمتكلمين فيه، من أمثال المحاسبي وأبي طالب المكي والحاكم الترمذي وأبي نعيم الأصفهاني والسراج الطوسي والقشيري والكلاباذي وعبد الرحمن السلمي والمجويري وأبي حامد الغزالي وغيرهم... وقد حدث بنا هذه الحقيقة التاريخية إلى السؤال عن كيفية معالجة هذه الإشكالية في العصر الحديث، إن كانت قد عولجت بمقتضى نظر معرفي أم عولجت بمقتضى موقف إيديولوجي؟ بيد أن الإجابة عن هذا السؤال تستدعي القيام بعملية مسح لكل المنجز في إطار هذه الإشكالية، وهذا مما ليس من مهامنا في هذا البحث، ومع ذلك فلا مناص من الإشارة إجمالاً وباختصار إلى الآراء المتداولة إلى الآن حول تأصيل التصوف الإسلامي.

أولاً: هناك من رأى أن التصوف لا صلة له بروح الإسلام، فهو من صميم الروح الفارسية والهندية. وهناك من رأى أنه ظهر من تأثير الأفلاطونية المحدثة والرواقية. أو من تأثير العقائد الغنوصية والهرمسية القادمة من مصر و الشام القديمتين. وهناك من رأى أنه دخل الإسلام من تأثير الرهبة المسيحية والقبالة اليهودية. بل إن منهم من ادّعى: "أن العقلية السامية عاجزة عن الفنون والعلوم، أولاً لفقرها في الخيال وثانياً لافتقارها إلى التدقيقات الروحية والمرونة العقلية واللغوية. ولهذا، رأوا أن ما نشأ في داخل الدين الإسلامي من تصوف إنما يرجع إلى رد فعل عنصري ولغوي وقومي من جانب العقلية الآرية ضد دين فرضه الغزاة المسلمون على أهل فارس فرضاً" وهذا هو موقف عموم المستشرقين وبعض الباحثين العرب والمسلمين.

ثانياً: وهناك من قسمه إلى: تصوف سني إسلامي خالص، وتصوف بدعي أو فلسفي. وقد أبدينا بخصوص معالجة هؤلاء الباحثين لهذه الإشكالية، الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: وتتعلق بالدراسات الاستشراقية. وهي أن هذه الدراسات بما أنها كانت السبّاقة إلى تحقيق ودراسة التراث الصوفي، فقد اكتسبت بذلك "

شرعية " تحديد الإطار المرجعي لكل ما تلاها من دراسات. ورغم ما يبدو من تباين جغرافي ولغوي بين المدارس المنتمة إليها تلك الدراسات (المدرسة الإنجليزية، المدرسة الفرنسية، المدرسة الألمانية، المدرسة الإسبانية) إلا أنها ظلت متكاملة فيما بينها في محاولاتها التأصيل للتصوف الإسلامي. فلم نجد كبير أثر لذلك التباين على تميز نتائج دراساتها. وحتى المراجعات التي تمت وقام بها خصوصا نيكلسون وماسينيون لم تكن لتستبعد الأثر الخارجي بتاتا. فنيكلسون الذي اعترف بخطأ معالجة نشأة التصوف الإسلامي، عاد فاستبعد كل النظريات التي تقول بالأصل الواحد وأرجعه في المقابل إلى عدة أصول (الإسلام، المسيحية، الغنوصية، الفلسفة اليونانية والمذاهب الهندية والفارسية، بالإضافة إلى الظروف السياسية والاجتماعية والعقلية السائدة في الإمبراطورية الإسلامية آنذاك). أما ماسينيون فهو وإن اعترف بتأثير التلاوة المتواصلة المتأملّة للقرآن والحديث وممارستها وتأثير الأزمات الاجتماعية أو الفردية في داخل المجتمع الإسلامي نفسه إلا أنه لم يستبعد ما أسماه " العناصر التزويقية الأجنبية" التي استطاعت الالتصاق به والانتشار فيه وهي مستمدة من الرهبانية المسيحية وكثير من المصطلحات الفلسفية الهلنستية المترجمة عن السريانية والنظائر الإيرانية والهندية والعناصر السنسكريتية، بل أنه ذهب الى أكثر من ذلك حينما لم يستبعد أن تبن الدراسة النقدية للعمليات المادية لإيقاع الذكر عند الطرق الصوفية الحديثة عن نفوذ بعض طرائق الزهد الهندوكي"².

أما الملاحظة الثانية التي تتعلق بالباحثين العرب والمسلمين فيمكننا إجمالها كالتالي:

² عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي: القاهرة الطبعة الثالثة 2008 صص، 56 40 وينظر كذلك: أبو العلا عفيفي: مقدمة كتاب: في التصوف الإسلامي وتاريخه لرينولد نيكلسون، ترجمة وتعليق، أبو العلا عفيفي: القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1947. وينظر في: أبو الوفا التفهزي مدخل إلى التصوف الإسلامي: القاهرة، دار الثقافة، 1974 ص ص 31، 32، 33.

أولاً: أنهم لم يخرجوا - عدا البعض - عن الإطار الذي حدده المستشرقون وكرّسوه بوصفه " إشكالية" تأصيل التصوف الإسلامي. فقاسم غني وأبو العلا عفيفي، انتھيا إلى ما انتھت إليه "مراجعة" رينولد نيكلسون، وهي استبعاد المؤثر الواحد والقول بتعدد المؤثرات والعوامل³.

أمّا الدكتور عبد الرحمن بدوي فهو وإن نفى أي تأثير أجنبي في النشأة الأولى للتصوف الإسلامي، إلا أنه أكد تأثر الصوفية المسلمين ابتداءً من القرن الخامس الهجري حتى القرن العاشر الهجري بما في أثولوجيا من آراء⁴

ثانياً: وهناك من نفى مطلقاً كل صلة للتصوف بالإسلام، ومن هؤلاء الدكتور محمد عابد الجابري الذي لم يكتف بهذا فحسب، بل وتبنّى تلك المقولة الاستشراقية، التي أشرنا إليها سابقاً فاجتزأها ليعيد القول: بأن التصوف ما هو إلا مؤامرة فارسية ثأرية ضد الإسلام لتقويض عقيدته وضد الدولة العربية الأموية لإسقاطها⁵.

ثالثاً: هناك من اعتبر التصوف جزءاً من العلوم الإسلامية أساسها الوحي. وهذا رأي الدكتور عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر الأسبق) الذي رأى: "أن العلوم الإسلامية إذا أطلقناها كانت: عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً. كانت تفسيراً للقرآن وشرحاً للحديث وجدلاً حول العقيدة التي نزل بها الوحي، وكانت اتجاهاً روحياً (تصوفاً) يستمد مبادئه ونظرياته من القرآن والسنة ومن التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم"⁶.

³ ينظر في: قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام: ترجمه عن الفارسية، صادق نشأة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1972، ص 90. وكذلك في: أبو العلا عفيفي: الثورة الروحية في الإسلام، ص ص، من 54 الى 57.

⁴ ينظر في: عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ص، 49.

⁵ محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2001. ص ص 433 وما بعدها.

⁶ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1989، ص ص 256 257.

رابعاً: هناك من قسّم التصوف إلى ثلاثة أقسام: قسم سني وقسم سلفي وقسم فلسفي. وهذا تقسيم علي سامي النشار. فالتصوف حسب هذا التقسيم، بدأ باستنباط حياة زهدية من القرآن والسنة وسيرة الصحابة، ثم كان تصوفاً. فالقسم السني منه، انتهى إلى الأخلاق في صورته الكاملة على يد أبي حامد الغزالي وأصبح طريقاً من طرق أهل السنة والجماعة، والقسم السلفي منه، توضح لدى الكرامية ثم لدى الهروي الأنصاري، ثم انبثق عند ابن تيمية، ثم ظهر كاملاً متناسقاً عند تلميذه ابن القيم. أما القسم الفلسفي منه، فانقلب عند طائفة مزجوه بعلوم اليونان وبحكمة المشاركة الأقدمين والفيدا الهندي واليوجا وتراث الهند جميعه في فلسفة ظاهرها إسلامي وباطنها غير إسلامي⁷.

وفي موضع آخر من الكتاب، يرى أن التصوف قسمان : قسم سني أو شيعي، يقابل في أصالة تعبيره عن روح الإسلام علم الكلام، وقسم فلسفي، أخذ من مختلف الثقافات، ويقابل فلاسفة الإسلام المشائين الذين "لم يعيشوا في العالم الإسلامي إلا كدوائر ملفوظة منفصلة عن تيار الفكر الإسلامي العام، ولم يكن لكتابتهم صدى وانتهت مجامعهم الفلسفية. لكن علم الكلام عاش دائماً عقيدة يتعبد بها المسلمون حتى الآن. فهل نرى نفس المسألة في التصوف؟ ويخلص علي سامي النشار إلى القول: "إننا نجد في مجتمعنا المعاصر صوفية أهل السنة والجماعة أو صوفية الشيعة ولا نجد صوفية من الفلاسفة، ونرى أن هؤلاء الصوفية المعاصرين سواء من الشكليين أو الحقيقيين يتصلون بأقطاب السنة الكبار في مذاهبهم، فنرى الشاذلية أو الجيلانية أو الخلوتية تستند على أبي حامد الغزالي أو عبد القادر الجيلاني ولا يتصل أحد في عقائده بمحي الدين بن عربي، فهل أصبح التصوف السني سمة من سمات المجتمع الإسلامي، وانتهت حلقات التصوف الفلسفي؟"⁸.

⁷ علي سامي النشار: نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام، الجزء الثالث، القاهرة دار المعارف، الطبعة التاسعة،

ص ص، 27، 28.

⁸ المرجع نفسه: ص ص 27، 28.

ونحن نرى أن إخراج تصوف ابن عربي من رتبة التصوف السني والقول بأنه مقطوع الصلة عن المجتمع الإسلامي ولا يتصل أحد بعقائده، فيه الكثير من الأحكام غير الواقعية. فابن عربي - كان ولا يزال - موصول الصلة بالمجتمع عبر طريقته المشهورة بالطريقة الأكبرية المنتشرة في كل أصقاع العالم الإسلامي وعبر كتبه.⁹ ثم أن تقسيم التصوف إلى تصوف سني وتصوف بدعي، هو - في ما نرى - تقسيم غير دقيق، فالتصوف إما أن يكون تصوفاً بالمعنى المتعارف عليه إسلامياً، أو لا يكون، ولا يقدح في إسلاميته كونه نحى منحى تجريدياً وتوغل في مباحث التوحيد والمُلك والملكوت واللاهوت والناسوت وغيرها، مما قد لا يدرك ولا يفهم إلا ذوقاً ويدقُّ عن الادراكات العقلية لأنه يدق عن العبارة، وهذا هو تصوف ابن عربي وهو ميزة مدرسته من بعده مع عبد الكريم الجيلي وعبد الغني النابلسي والملا حسن الشافعي وابن الفارض والأمير عبد القادر الجزائري وغيرهم.

التربية الصوفية بين ظاهر الشريعة وحقيقتها:

الشريعة والحقيقة والعلاقة بينهما:

يعرّف عبد الرزاق القاشاني الشريعة كالتالي: "...وقد يطلقون الشريعة ويعنون بها الأمر بالتزام العبودية ويقولون: الحقيقة. ويعنون بها مشاهدة الربوبية، بمعنى أنه تعالى هو الفاعل في كل شيء (...). والشريعة قيام بما أمر الله، والحقيقة شريعة أيضاً من حيث أن المعرفة به سبحانه وتعالى وجبت أيضاً بأمره"¹⁰. ويعرّفها ابن عجيبة فيقول: "الشريعة عمل الجوارح والحقيقة معرفة البواطن فالشريعة أن تعبد الله والحقيقة أن تشهد (...). وما مثل الشريعة الظاهرة مع الحقيقة الباطنية إلا

⁹ ينظر البحث المطول الذي كتبه أبو الوفا التفتازاني في الكتاب التذكاري الذي أصدره المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية بعنوان "الطريقة الأكبرية" القاهرة سنة 1969

¹⁰ عبد الرزاق القاشاني: لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2004، ص 258.

كأصل شجرة في بستان فأصل الشجرة المغروزة في الأرض مثل الحقيقة والفرع الظاهر على وجه الأرض، مثل الشريعة¹¹. "وقد تطلق عندهم الشريعة على كل ما يتوصل به إلى شيء، أو يكون سبباً في إدراكه، فالأسباب كلها شرائع والمقاصد كلها حقائق (٠٠٠) والمجاهدة شريعة المشاهدة، والذل شريعة العز، والفقر شريعة الغنى، وهكذا، والحرث والغرس شريعة جني الثمار ولذلك يقولون: من غرس الشرائع أثمرت له الحقائق، ومن غرس الحقائق، أثمرت له الشرائع أي أخرجته إلى الرجوع إلى الشرائع"¹². والشريعة قيام بما أمر الله تعالى والحقيقة شهود بما قضى وقدر وأخفى وأظهر". ويذهب الهجويري في كشف المحجوب إلى أنهما: "عبارتان لهؤلاء القوم يعبرون بإحدهما عن صحة حال الظاهر وبالثانية عن إقامة حال الباطن (٠٠٠) فالحقيقة عبارة عن المعنى الذي لا يجوز عليه النسخ وحكمه متساوٍ منذ عهد آدم حتى فناء العالم مثل معرفة الحق وصحة معاملة النفس بخلوص النية، والشريعة عبارة عن المعنى الذي يجوز عليه النسخ والتبديل مثل أحكام الأوامر، فالشريعة هي فعل للعبد والحقيقة هي حفظ الله وعصمته جل جلاله للعبد إقامة الشريعة بدون وجود الحقيقة محال وإقامة الحقيقة بدون حفظ الشريعة محال ومثلهما كمثل شخص حي بالروح فعندما تنفصل عنه الروح يصير جيفةً وتصير الروح ريحاً، فقيمتها في اقترانها ببعضهما البعض وكذلك الشريعة تكون بدون الحقيقة رياءً وتكون الحقيقة بدون الشريعة نفاقاً. يقول الله تعالى "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا". فالمجاهدة شريعة والهداية حقيقة (٠٠٠) والشريعة من المكاسب والحقيقة من المواهب"¹³.

¹¹ أحمد بن عجيبة: الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، بيروت دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2000، ص ص 262، 263.

¹² أحمد بن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، القاهرة، مكتبة أم القرى، الطبعة الأولى، 2002، ص 70.

¹³ الهجويري (أبو الحسن علي بن عثمان): كشف المحجوب، الجزء الثاني ترجمة، اسعاد عبد الهادي قنديل، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2007، ص ص 626، 627.

وفي اللّمع يقول أبو نصر السّراج: " ... فاذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي الجارحة الباطنة وهي القلب كما أنّا إذا قلنا : علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء (....) ولا يستغني الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر وقد قال الله عز وجل " ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر منهم لعلهم الذين يستنبطونه منهم " (النساء الآية 83) فالعلم المستنبط، هو العلم الباطن وهو علم أهل التصوف. لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك (....) فالعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن¹⁴ . أما ابن عربي في كتابه "الحكم" فيضيف " الطريقة " إلى الشريعة والحقيقة بمقتضى منطوق حديث نبوي شريف وهو قوله صلى الله عليه وسلم " الشريعة مقالي والطريقة أفعالي والحقيقة حالي " ولتوضيح هذه الأصول الثلاثة يقول ابن عربي: "... وقلت في توضيح ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم بلسان الإلهام الرباني...". ويورد عشرين وجهاً تفسيرياً ممكناً على البناء الصياغي نفسه، نعرض بعضاً منها على سبيل المثال: "الشريعة بمنزلة جسم، والطريقة بمثابة نفس، والحقيقة روح للشريعة والطريقة. الشريعة بداية، والطريقة وسط، والحقيقة غاية. الشريعة ظاهرة، والطريقة باطنة، والحقيقة مشاهدة. الشريعة إسلام والطريقة إيمان، والحقيقة إحسان"¹⁵.

ويرى ابن عجيبة أنه " لما تجلّى الحق بين الضدين تجلّى بمظاهر عظمة الربوبية في قوالب العبودية ظهرت الشريعة والحقيقة. فشهود العظمة من حيث هي، هي حقيقة. والقيام بأداب القوالب عبادة وعبودية، هي شريعة. وأما الطريقة فهي

¹⁴ أبو نصر عبد الله السراج: اللّمع في تاريخ التصوف الإسلامي، بيروت، دار الكتب العلمية ط: 1/ 2001، ص ص 25، 26

¹⁵ ابن عربي: الحكم (شرح حكم الشيخ الأكبر) تأليف، الشيخ ملا حسن بن موسى، تحقيق، الشيخ أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط: 1- 2006، ص ص من 452 الى 470.

إصلاح الضمائر لتتبيها لإشراق أنوار الحقائق عليها. فالشريعة لإصلاح الظواهر والطريقة لإصلاح الضمائر والحقيقة لتزيين السرائر¹⁶."

وقد أجمعوا على أن الشريعة والحقيقة متلازمان. فالمراد من الحقيقة والشريعة إقامة العبودية على الوجه المرضي. فكل شريعة لا حقيقة لها، فهي عاطلة. وكل حقيقة لا شريعة لها، فهي باطلة. فالشريعة حق، والحقيقة حقيقتها. ولا تتحقق حقيقة الشريعة إلا بالعبادة الحقيقية. ولا يتوصل إلى العبادة الحقيقية، إلا بالطريقة " أي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقي في المقامات " ¹⁷ للوصول إلى تحقيق العبودية لله، والتي هي أشرف المقامات ومنتهى الغايات، التي من أجلها خلق الله الإنس والجن قال الله تعالى " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون".

فالطريقة - إذن - هي الخيط الناظم. وهي حلقة الوصل بين الشريعة والحقيقة، والتي لولاها ما أثمرت الشريعة الحقيقة، ولا صارت الحقيقة شريعة. فالطريقة بهذا المعنى هي المنهج المخصوص الذي يلتزم به السالك لإقامة العبادة على الوجه الموصل إلى العبودية لله، وهذا المنهج هو المقصود بالتطبيق في التربية الصوفية.

التربية الصوفية: المنهج والسلوك.

لقد انتهينا قبل قليل إلى أن للتربية الإسلامية منهجين:

منهج يكتفي بظاهر العبادة، وهو منهج فقهاء الشريعة، ومنهج لا يكتفي بظاهر العبادة، بل يتوخى باطنها للوصول إلى حقيقتها، وهو منهج مشايخ التربية الصوفية. والفرق بين المنهجين هو:

¹⁶ أحمد بن عجيبة: معراج الشوف، مرجع سابق، ص 70.

¹⁷ ضياء الدين أحمد الكمشاوي: جامع الأصول في الأولياء، تحقيق، أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 371.

أن الأول يقتصر على الجانب الشكلي الحركي في العبادة. فإذا ما تحققت أركانها القولية والفعلية اكتفى بذلك، كالركوع والسجود وقراءة الفاتحة والسورة بالنسبة للصلاة. وهكذا في كل العبادات .

أما المنهج الثاني: فزيادة على مراعاة الجوانب الشكلية القولية والفعلية في العبادة، إلا أنه يراعي خاصة الشروط القلبية من حضور وخشوع وتصحيح النية والتوبة والإخلاص... وغيرها من آداب العبادات. قال ابن عطاء: " لا يكون همك في صلاتك إقامتها دون الهيبة والإجلال لمن رآك فيها أي الله¹⁸. وسئل الجنيد: ما فريضة الصلاة ؟ قال: "قطع العلائق وجمع الهم والحضور بين يدي الله". وسئل أبو سعيد الخراز: كيف الدخول في الصلاة ؟ فقال: "هو أن تقبل على الله تعالى كقبالك عليه يوم القيامة، ووقوفك بين يدي الله تعالى ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدي من أنت واقف، فانه الملك العظيم"¹⁹. وقد أورد الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه: "سر الأسرار" أمثلة عن عبادة الظاهر وعبادة الباطن، فقال: " فالطهارة على نوعين : طهارة الظاهر وطهارة الباطن، فطهارة الظاهر تحصل بماء الشريعة، وطهارة الباطن تحصل بماء التوبة والتلقين والتصفية وسلوك الطريق. فإذا انتقض وضوء الباطن بالأفعال الذميمة والأخلاق الرذيلة، كالكبر والحقد والحسد والعجب والغيبة والكذب (....) فتجديده بإخلاص التوبة عن هذه المفسدات وتجديد الإنابة بالندم والاستغفار والاشتغال بقمعها من الباطن"²⁰. ويقول ابن عطاء الله السكندري: " عليك بحسن العمل لا بكثرتة."²¹ ليكن همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة فما كل

¹⁸ أورده أبو بكر محمد الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، بيروت، دار صادر الطبعة الأولى، 2001، ص 106.

¹⁹ أبو نصر السراج: اللّمع، مصدر سابق، ص 143.

²⁰ الشيخ عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار ومظهر الأنوار في ما يحتاج إليه الأبرار، تحقيق: أحمد فريد المزدي، بيروت، دار الكتب العلمية الطبعة الثانية 2007، ص ص 39، 40، 41.

²¹ ابن عطاء الله السكندري: تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 29.

مصلٍّ مقيم.²² هكذا حالهم في كل العبادات لا يكتفون بالإتيان بأركانها الشرعية بل يتجاوزون ذلك إلى طلب آدابها لتحقيق أركان العبودية التي هي غاية العبادات كلها . ومن آداب التعبد: "إتيان ما وظف الله على شرط الواجب، وشرط الواجب هو الإتيان به على غير مطالبة عوض ليعبدوه بالرق لا بالطمع.²³ وفي الحكم العطائية: "لا تطلب عوضاً على عمل لست له فاعلاً، يكفي من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلاً."²⁴ متى طلبت عوضاً على عمل طولبت بوجود الصديق فيه.²⁵ وعبادة الله بالرق هي كمال الحرية مما سواه. قال الجنيد: "لا تكن عبداً لله وأنت لشيء سواه مسترقاً."²⁶ ويقول أيضاً: "إنك لن تكون له على الحقيقة عبداً وشيء مما دونه لك مسترق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية، فاذا كنت له وحده عبداً كنت مما دونه حراً."²⁷ ويروي عبد الرحمن السلمي في "طبقات الصوفية" عن أبي بكر الرازي أنه سمع إبراهيم بن شيبان يقول: "من أراد أن يكون حراً من الكون فليخلص في عبادة ربه، فمن تحقق في عبادة ربه صار حراً مما سواه"²⁸ وفي هذا المعنى يقول أبو مدين شعيب: "لا تكون له عبداً ولغيره فيك شائبة رق."²⁹ ويقول أيضاً: "ما وصل إلى صريح الحرية من

²² ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، (الحكمة 118) القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، 2005، ص، 125.

²³ الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص 105

²⁴ ابن عطاء الله السكندري: الحكم (الحكمة 122) مرجع سابق، ص 126

²⁵ المرجع السابق، (الحكمة 131) ص 128.

²⁶ الجنيد: (تاج العارفين) الأعمال الكاملة، جمع وتحقيق، سعاد الحكيم، القاهرة، دار الشروق، ط: 2، 2005، ص 159.

²⁷ أبو عبد الرحمن محمد السلمي: طبقات الصوفية، تحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1998، ص 131.

²⁸ المصدر السابق: ص 305.

²⁹ أبو مدين شعيب: أنس الوحيد وزهة المريد، تحقيق، خالد زهري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 2004، ص 86.

عليه من نفسه بقية رق.³⁰ وفي الحكم العطائية: "أنت حر مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت فيه طامع."³¹ لكن كيف الوصول إلى هذه العبودية لله المانحة لصريح الحرية مما سواه ؟ .

الطريق إلى الله :

والطريق إلى الله واحدة مرسومة ومحددة بالنص القرآني بقوله تعالى " وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله " (الأنعام الآية 153) وبنص الحديث النبوي : فعن عبد الله بن عباس أنه قال " خطَّ رسول الله خطأً بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً، وخطَّ عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السُّبل ليس منها من سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه. " ويقول الله تعالى " قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني". ولأن الطريق إلى الله طويلة وشاقة ووعدة المسالك، واحتراراً من الوقوع في المهالك اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الداعي إليها على بصيرة، ببصيرة الوحي وهي خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. أو ببصيرة الإتياع وهي للصحابة والتابعين وللعلماء العاملين بحكم الأسوة. قال الله تعالى " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة". وبحكم الوراثة عنه قال عليه الصلاة والسلام " العلماء ورثة الأنبياء".

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الداعي إلى الله بالأصالة. قال بعض العلماء: " ما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو الأصل وما تزايد عن ذلك الأصل فهو فرع مردود إلى الأصل."³² لقد تأسَّى بسيرته الصحابة وأوصلوها إلى التابعين الذين تمثلوها أقوالاً وأفعالا وبدورهم أوصلوها كاملةً إلى العلماء العاملين في ظرفية زمنية اتسمت بالفتن الداخلية إثر توسع الإمبراطورية الإسلامية وما صاحب ذلك من سيادة ثقافة الغنيمة فانشغل الناس بالتوسعة في الكسب الدنيوي والتنافس على

³⁰ المصدر السابق: ص 72

³¹ ابن عطاء الله السكندري: الحكم (الحكمة 62) ص 117.

³² أبو نصر السراج: اللع، مصدر سابق، ص 305.

كل ما يحقق المتعة والرفاه فعمد أولئك العلماء إلى العزلة وترك الجدال والمراء
وآثروا الفقر وعملوا لما بعد الموت فسموا عبّاداً وسموا زهاداً وسموا صوفيةً، لكنهم
كانوا علماء عاملين فكان منهم: ذو النون المصري وإبراهيم بن أدهم ومعروف
الكرخي وسري السقطي والفضيل بن عياض والحرث بن أسد المحاسبي . و بشر
الحافي وداوود الطائي وسفيان الثوري وشقيق البلخي وأبو يزيد البسطامي وأبو
سليمان الداراني ويحيى بن معاذ الرازي وسهل بن عبد الله التستري وأبو القاسم
الجنيد (سيد الطائفة وإمامها) وعمرو بن عثمان المكي والأئمة : مالك بن أنس
والشافعي وأبو حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري والبخاري ومسلم
والترمذي والنسائي وأبو داوود... وغيرهم كثيرون ممن ذكرت سيرهم ومناقبهم في
كتب الطبقات والتراجم . وقد قال عنهم الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن
القشيري في مقدمة رسالته ما نصّه: " فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه
وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وجعل
قلوبهم معادن أسرارهم واختصّهم من بين الأمة بطواع أنوارهم، فهم الغياث للخلق
والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفّاهم من كدورات البشرية
ورقّاهم إلى محال المشاهدات بما تجلّى لهم من حقائق الأحدية ووقفهم للقيام
بآداب العبودية وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية فقاموا بأداء ما عليهم من
واجبات التكليف وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقلب والتصريف ثم رجعوا
إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ولم يتكلوا على ما حصل
منهم من الأعمال أو صفّا لهم من الأحوال علماً منهم بأنه جلّ وعلا يفعل ما يريد
ويختار من يشاء من العبيد.³³ " فلما عملوا بما علموا ورثهم الله تعالى علم ما لم يعلموه
وهو علم الإشارة وعلم موازين الأعمال التي يكشف الله تعالى لقلوب أصفیائه من
المعاني المذخورة واللطائف والأسرار المخزونة وغرائب العلوم وطرائف الحكم في

³³ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، بيروت، دار احياء التراث
العربي الطبعة الأولى 1998، ص 12.

معاني القرآن ومعاني أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث أحوالهم وأوقاتهم وصفاء أذكارهم.³⁴

وذكر أبو سراج الطوسي في اللّمع أن " لهم مستنبطات صحيحة في القرآن والحديث " وأورد بعضاً منها مع الشرح.³⁵ وبحكم الوراثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اقتفوا سيرته والتزموا آدابه وتخلقوا بأخلاقه. ومن هنا كانت بداية تشكّل مذهبهم أي مذهب التصوف الذي قال عنه إمام الطائفة الجنيّد: " مذهبنا هذا مقيدّ بالكتاب والسنة ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر ".³⁶ واعتبره أبو سراج الطوسي " مذهب أهل الصّفة " ووصف أصحابه بأنهم " من المتحققين بالموافقة لكتاب الله عز وجل ظاهراً وباطناً والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً ".³⁷

وقال عنهم القشيري في الرسالة: " إن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القدم وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم ".³⁸ وكما قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: " إن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه، أي على وجه الإخلاص لا غير ".³⁹ وصيانةً لهذه الأمانة التي ورثوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولضمان نقلها وتبليغها إلى المسلمين عبر العصور والأزمنة اللاحقة، أوجدوا ما أصبح يعرف بالطريقة الصوفية " .

³⁴ أبو نصر السراج: اللّمع، مصدر سابق، ص 100.

³⁵ ينظر في المصدر السابق، ص ص من 100 إلى 113.

³⁶ القشيري: الرسالة، مصدر سابق، ص 67.

³⁷ السراج: اللّمع، مصدر سابق، ص 100.

³⁸ القشيري: الرسالة، مصدر سابق، ص 15.

³⁹ عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق، طه عبد الباقي سرور و السيد محمد عيد الشافعي، بيروت، مكتبة المعارف، 1993، ص 195.

الطريقة الصوفية :

والطريقة الصوفية، هي طريقة في التربية والسلوك والتزكية تُلزم مرديها بالتأدب بآداب الرسول صلى الله عليه وسلم والتخلق بأخلاقه والاقتداء بسنته في العبادات والمعاملات وتلقّهم صيغ الذكر وآدابه وأوراد الليل والنهار. وقد أناط الشيخ عبد الوهاب الشعراني حقيقة التصوف بمعرفة الطريق بقوله: " فليس علم التصوف إلا معرفة طريق الوصول إلى العمل بالإخلاص لا غير".⁴⁰ وللطريقة الصوفية أركان.

أركان الطريقة الصوفية :

الركن الأول: الشيخ المرّي.

الركن الثاني: المريد.

الركن الثالث: العهد أو التلقين ونعني به هنا منظومة الأقوال والأفعال والقيم التي توجه سلوك المريد الوجهة الصحيحة في حالي التحلية والتخلية للوصول إلى معرفة الله والتحقق بمقام العبودية . وقد عرّفوا هذه الأركان ووضعوا شروط صحّة لكل واحد منها.

الركن الأول: الشيخ:

يعرّف القاشاني الشيخ بأنه: "هو الإنسان البالغ في العلوم الثلاثة التي هي علم الشريعة والطريقة والحقيقة الى الحد الذي من بلغه كان عالماً ربّانياً مرّياً هادياً مهدياً مرشداً إلى طريق الرشاد مُعينا لمن أراد الاستعانة به على البلوغ إلى رُتب أهل السداد، وذلك بما وهبه الله من العلم اللدني الرباني والطب المعنوي الروحاني فهو طبيب الأرواح الشافي لها بما علّمه الله تعالى من أدوية أدوائها المردية لها الذي بلغ في نفوذ بصيرته إلى مقام المشاهدة لما يعرض لقلوب السالكين من الأدواء المانعة لهم عن الخطوة بالقرب من حضرة الحق تعالى ويشاهد أيضاً ما ينبغي أن

⁴⁰ عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق، طه عبد الباقي سرور و السيد محمد عيد الشافعي، بيروت، مكتبة المعارف، 1993، ص 195.

يعالج به تلك الأدواء والعلل من الرياضات والمجاهدات، فمن كان مقامه في العلم اللدني ما ذكرنا فهو طبيب الأرواح والشيخ الذي من اقتفى أثره صار من أهل الفلاح".⁴¹ ويعرفه أبو مدين شعيب في أنس الوحيد ونزهة المرید بأنه: " من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالاحترام والتعظيم".⁴²

والشيخ عند ابن عربي هو: " من أزاح عنك كل حجب وأمات نفسك قبل أن تموت وأجال بروحك في عالم اللاهوت".⁴³ وقال عنه ابن عطاء الله السكندري: " ليس شيخك من سمعت منه وإنما شيخك من أخذت عنه وليس شيخك من واجهتك عبارته وإنما شيخك الذي سارت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب إنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك الذي واجهك مقاله وإنما الذي نهض بك حاله".⁴⁴ وقال بعضهم: " إن الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه وأنار باطنك بإشراقه، والشيخ من جمعك في حضوره وحفظك في مغيبه".⁴⁵ وكان أبو الحسن الشاذلي يقول: " الشيخ من دلّك على الراحة لا من دلّك على التعب".⁴⁶ وربما قصد بالراحة ترك الدنيا والزهد فيها والاشتغال بذكر الله، إذ بذكر الله تطمئن القلوب، وقصد بالتعب الاشتغال بالدنيا والجري وراءها. كما يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: "...فالمشايع هم الطريق إلى الله عز وجل والأدلاء عليه والباب الذي يدخل منه إليه".⁴⁷ ولأن الأدلاء

⁴¹ عبد الرزاق القاشاني: لطائف الإعلام، مصدر سابق، ص 264.

⁴² أبو مدين شعيب: أنس الوحيد، مصدر سابق، ص 87.

⁴³ ابن عربي: أورده عبد الوهاب الشعراني في: ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبرى تحقيق، د. عبد الباري محمد داود، القاهرة، دار جوامع الكلم، 2003، ص 184.

⁴⁴ ابن عطاء الله: أورده الشعراني في المرجع السابق، ص 185.

⁴⁵ أورده ابن عجيبة في: الفتوحات الإلهية، مرجع سابق، ص 83.

⁴⁶ أبو علي الحسن الكوهن الفاسي: طبقات الشاذلية الكبرى، المسمى: جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية 2005، ص 24.

⁴⁷ الشيخ عبد القادر الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 1 1996، ص 449.

على الله بالأصالة هم الأنبياء والرسل، وبانقطاعهم فقد جعل الله علماء أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أدلاءً عليه بحكم الأسوة الحسنة والوراثة ولأن التدليل على الله بقصد معرفته هو في الجانب الروحي من رسالة الإسلام (أي الطريقة) فان مشايخ الصوفية العارفين بالله هم المعنيون بهذه المهمة لأن الطريقة الصوفية هي لإصلاح الضمائر لنتيهاً لإشراق أنوار الحقائق عليها وعلى ذلك فهي " تختص بالذين يسعون الى الله الذين يبحثون عن الحق الثابت وهذا الحق مع أنه موجود فهو في الوقت نفسه ينبوع الغيبي والدائم لكل ما هو وحي. فالطريقة الصوفية - اذن - هي الوسيلة التي بها يستطيع الإنسان أن يعود الى أصل الوحي الإسلامي نفسه وأن يصبح - بمعنى روحي - صاحبياً وخليفةً للنبي ولأولياء. إن مهمة الشيخ هي أن يجعل هذه الولادة الروحية أو التحول الروحي في حيز الإمكان. ولما كان الشيخ الصوفي هو نفسه متصلاً عن طريق سلسلة الأولياء بالنبي وبمهمة الولاية التي تحتويها الرسالة النبوية نفسها، فهو قادر على تحرير المرء من العالم المادي الضيق الحدود وإطلاقه إلى فضاء الحياة الروحية المشرق الذي لا يعرف الحدود. وعلى يد الشيخ نائباً عن النبي يحصل الموت والانبعاث الروحي بفاعلية البركة التي هي فيه (....) وشيوخ الصوفية هم أولئك الأفراد الذين دعاهم الله عن طريق صلتهم بسلسلة الولاية الذهبية بصيانة الطريق الروحي ودعم حيويته على الأرض، ولكي يرشدوا في هذا الطريق الملوكي أصحاب المؤهلات المطلوبة، فهم - إذن - أمراء العالم الخارجي، وبرعايتهم تتحول الصحراء إلى جنة ناضرة وتنقلب المعادن الرخيصة إلى ذهب وتبلور حالة النفس المضطربة المشوشة في نموذج من الجمال ينبعث منه شذا التوحيد.⁴⁸

شروط الشيخ :

⁴⁸ الدكتور سيد حسين نصر: الصوفية بين الأمس واليوم، ترجمة، الدكتور كمال خليل اليازجي، بيروت، الدار المتحدة للنشر، الطبعة الأولى 1975، ص ص من 70 الى 80.

وقد حدّد مشايخ التربية الصوفية أنفسهم شروط المشيخة وأمارات التأهل لهذه المهمة باعتبار أنهم كانوا مرّدين سالكين الطريق نفسها قبل أن يرتقوا إلى درجة المشيخة، فحديثهم عن هذه الشروط ليس حديثاً نظرياً، بل هو حديث واقعي عن مؤهلات ثبت يقيناً صحتها بحكم التجربة لأنهم وصلوا بها إلى معرفة الله فهو حديث عن ممارسة يومية واقعية. فقد نجد بعض المشايخ يذكر شروطاً كان قد أغفلها آخر لكننا لا نجد خلافاً أو تناقضاً بين شرط وآخر أو بين قاعدة وأخرى. فبعضهم حدّدوها بخمسة شروط هي: " ذوق صريح وعلم صحيح وهمّة عالية وحالة مرضية وبصيرة نافذة. وخمسة أخرى لا تصح مشيخة من توفرت فيه وهي: الجهل بالدين وإسقاط حرمة المسلمين والدخول في ما لا يعني وإتباع الهوى في كل شيء وسوء الخلق من غير مبالاة." ⁴⁹ وربما كان الإمام الجنيد أول من تحدث عن شروط شيخ التربية حينما قال: " من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر " ⁵⁰.

اقتصر الإمام الجنيد هنا على مبدأ العلم وربما اقتصر غيره على مبدأ الآداب، وربما زواج آخر بين مبدأي العلم والآداب. وهذا الشيخ عبد القادر الجيلاني وهو من أكبر شيوخ التربية يورد شروطاً للشيخ المربي فيقول: " لا يجوز لشيخ أن يجلس على سجادة النهاية ويتقلد بسيف العناية حتى يكمل فيه اثنتا عشرة خصلة، خصلتان من الله تعالى وخصلتان من النبي صلى الله عليه وسلم وخصلتان من أبي بكر رضي الله عنه وخصلتان من عمر رضي الله عنه وخصلتان من عثمان رضي الله عنه وخصلتان من علي رضي الله عنه. فأما اللتان من الله تعالى : يكون ستاراً غفراً. وأما اللتان من النبي صلى الله عليه وسلم : يكون شقيقاً رفيقاً. وأما اللتان من أبي بكر رضي الله عنه: يكون صادقاً متصدقاً.

⁴⁹ ضياء الدين أحمد الكمشاوي : جامع الأصول في الأولياء، مصدر سابق، ص 30.

⁵⁰ القشيري: الرسالة، ص 67.

وأما اللتان من عمر رضي الله عنه: يكون أماراً نهائاً. وأما اللتان من عثمان رضي الله عنه: يكون طعاماً للطعام مصلياً بالليل والناس نيام. وأما اللتان من علي رضي الله عنه. يكون عالماً شجاعاً. (....) وصفة المقتدى به في السلوك أن يكون عارفاً بالعلوم الشرعية و الطبية ومصطلح السادة الصوفية" ومما قاله شعراً في هذا الشأن:

إذا لم يكن في الشيخ خمس فوائد وإلا فدجال يقود الى الجهل.
علم بأحكام الشريعة ظاهراً ويبحث في علم الحقيقة عن أصل.

ويظهر للوارد بالبشر والقرى ويخضع للمسكين بالقول والفعل
فذاك هو الشيخ المعظم قدره علم بأحكام الحرام من الحل
يهذب طلاب الطريق ونفسه مهذبة من قبل ذو كرم كلي.⁵¹
وإلى جانب مبدئي العلم والآداب، هناك مبدأ ثالث لا تصح التربية إلا به، وهو:

الإذن :

إذ لا يجوز الخروج لمباشرة التربية إلا بإذن، إما من شيخ أو من مجموعة مشايخ أو بإذن مباشر من الرسول صلى الله عليه وسلم. قال الجنيد: " الصواب كل نطق عن إذن (....) ما تكلمت على الناس حتى أشار إليّ وعليّ ثلاثون من البدلاء إنك تصلح أن تدعو إلى الله عز وجل"⁵². ومن أقوال أبي مدين شعيب: " من خرج إلى الخلق قبل وجود حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتون"⁵³. وقال الشيخ أبو العباس المرسي: " ما جلسنا للناس (أي للمشيخة) حتى هُددنا بالسلب، فقليل لي

⁵¹ الشيخ عبد القادر الجيلاني: قلائد الجواهر، ضمن كتاب " سر الأسرار" مصدر سابق، ص 203.

⁵² الجنيد (تاج العارفين) مصدر سابق، ص 85.

⁵³ أبو مدين شعيب: أنس الوحيد، مصدر سابق، ص 72.

لئن لم تجلس لنسلبنك ما وهبناك"⁵⁴. لأن الله اختارهم لهداية خلقه وسخرهم لتلك المهمة، فليس لهم خيار مع ما اختاره الله لهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"، لذلك فتح الله لمريديهم على أيديهم فأصبحوا شيوخاً مربين مآذونين، وهكذا تسلسلت المشيخات بسند صحيح مآذون يعرف ب"السند الذهبي" أو "السلسلة الذهبية". وقد نبّه مشايخ الصوفية إلى خطورة المتمشixin بغير إذن لأغراض دنيوية قال الرازي: "وقد جلس جماعة في عصرنا من غير إذن من أسيانهم وصاروا يأخذون العهد على المريدين من غير علم بالطريق فأفسدوا أكثر مما أصلحوا وكان عليهم إثم قطاع الطريق أي طريق القوم وربما كان أعظم من إثم قطاع الطريق عرفاً في بعض الأحوال واحدهم شيطان في زيّ إنسان"⁵⁵.

هذا البروز للدعوة بغير داع إلهي "من علامة الجهل بطريق أهل الله تعالى"⁵⁶ "ومن جلس للمشيخة بغير إذن شيخه ضلّ وأضلّ"⁵⁷ فشيوخ التربية الجديرون بهذه المهمة في نظر الشيخ عبد الوهاب الشعراني هم نواب الشارع صلى الله عليه وسلم في إرشاد جميع الناس بل هم الورثة للرسول على الحقيقة ورثوا علوم شرائعهم (...) فلهم حفظ الشريعة (...) ولهم حفظ القلوب من الميل الى غير مرضات الله ومراعاة الآداب الخاصة بأهل الحضرة الإلهية وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب"⁵⁸.

وينقل الشعراوي عن شيخه علي الخواص قوله: "علامة الشيخ الذي يجب الأدب معه، أن يكون عارفاً بالكتاب والسنة قائلاً بها في ظاهره متحققاً بها في

⁵⁴ أبو العباس المرسى: أورده ابن عطاء الله السكندري في: لطائف المنن، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1998، ص 96.

⁵⁵ عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص 35.

⁵⁶ عبد الوهاب الشعراني: ردع الفقرا، مصدر سابق، ص 405.

⁵⁷ عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية، الجزء الأول، ص 20.

⁵⁸ المرجع نفسه ص 20.

سره يراعي حدود الله ويوفي بعهد الله لا يتأول في الورع، بل يأخذ بالاحتياط في سائر أحواله، يشفق على جميع الأمة، لا يمقت أحداً من العصاة بل يتلطف به ويدعوه إلى الخير برحمة ورفق، جوده مطلق على البر والفاجر والشاكر والجاحد، كأن جميع الخلق عائلته.⁵⁹

ولأبي حامد الغزالي كتاب بعنوان: "الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين" يشرح فيه - من ضمن ما يشرح - غرور أدعياء المشيخة والتصوف في عصره فيقول: "...وما أغلب الغرور على هؤلاء منهم متصوفة أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله واغتروا بالزي والمنطق والهيئة فشابهوا الصادقين من الصوفية في زيهم وألفاظهم وآدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وأحوالهم (...). فلما تعلموا ذلك ظنوا أن ذلك ينجيهم فلم يتعبوا أنفسهم قط بالمجاهدة والرياضة والمراقبة للقلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجليلة والخفية (...). ثم أنهم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين (...). ويمزق بعضهم أعراض بعض مهمل خالفه في شيء من غرضه فهؤلاء غرورهم ظاهر." وينبّه إلى خطرهم فيقول: "وضرر هؤلاء على المسلمين أشد من ضرر اللصوص، لأن هؤلاء يسرقون القلوب بالزي فيقتدي بهم غيرهم فيكونون سبب هلاكهم فإن اطلعوا على فضائحهم فيظنون أن أهل التصوف كذلك فيصرحون بدم الصوفية على الإطلاق."⁶⁰

وقد شنّع الشيخ عبد الوهاب الشعراني بهؤلاء المتمشixin وحذّر منهم في كل كتبه، بل وقد أفرد كتاباً لفضح حيلهم وتلبيساتهم ومكرهم، ووضع الضابط الذي به يُعرف الشيخ الصادق من غير الصادق بقوله: "إن كل من رأيناه متقيداً بظاهر الكتاب والسنة متأدياً بآداب أهل الطريق على وفق سير المشايخ المنقولة في مثل

⁵⁹ المرجع نفسه ص 20.

⁶⁰ أبو حامد الغزالي: الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين، ضمن مجموعة رسائل الغزالي، بيروت، دار الفكر، 2006، ص. ص 446، 447.

رسالة القشيري والحلية لأبي نعيم فهو صادق في دعواه المشيخة فيجب علينا التأدب معه.⁶¹

ولقد قال مشايخ التصوف الكثير في ما يجب على شيخ التربية التحلي به والتخلي عنه من آداب وأخلاق وفي ما تجب حيازته من علوم شرعية وذوقية ظاهرة وباطنية، لكنهم اعتنوا أكثر بالآداب والأخلاق آخذين بتعريفهم للتصوف من أنه "الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني" ومن أنه "خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء."⁶² وربما آخذين كذلك بوصية الإمام مالك بن أنس لتلميذه الشافعي "اجعل أدبك طعاماً وعلمك ملحاً".

والعلم المقصود هنا هو العلم الكسبي (الظاهر) أما العلم (الباطن)، فذاك علم وهبي لدني وهو المطلوب عندهم، بل وجعلوا الآداب والأخلاق في عباداتهم ومعاملاتهم هي الطريق إليه، فهي في علاقة طردية معه، فبقدر ما زاد التمسك بالآداب والأخلاق الشرعية، بقدر ما زادت المعارف والعلوم الوهية اللدنية، مصداقاً لما وعد الله به عباده المتقين بقوله تعالى "واتقوا الله ويعلمكم الله".

والعلوم الوهية اللدنية لا حد لها ولا حصر، يهبها الله لأوليائه. لذلك اشترطوا في من يتصدر للمشيخة أن يكون ولياً لله، وعلى هذا تحدى الشيخ عبد الوهاب الشعراني مدعي المشيخة من مشايخ عصره بقوله: "...ثم اني أقول: شرط من يلقن الذكر ويعمل شيخاً مسلماً أن يكون ولياً لله". ويسألهم ليقم عليهم الحجة "فهل أنت ولي؟ فان قلت لا قلنا: لا يجوز لك أن نتصدر للمشيخة، وان قلت أنا ولي سألتك عن علوم الأولياء التي يتداولونها في ما بينهم مما لا يسطر في كتاب ولا طرق سمعك علم منها وهي كثيرة". وقد ذكر منها في كتابه "تنبيه الأغبياء على قطرة

⁶¹ عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية، الجزء الثاني، ص 35.

⁶² القشيري: الرسالة، ص ص من 355 الى 360.

من بحور الأولياء" نحو عشرة آلاف علم.⁶³ : كل علم منها لا يدرك له قرار ولا يسطر في كتاب حتى يمكن الوقوف على معرفتها لو سئل شيخ من مشايخ هذا الزمان على علم منها لم يدر اسمه فضلاً عن الخوض فيه". وحتى لا يظن أحد أن هذا من قبيل الادعاء فقط. قال مستدركا: "وقد أحببت أن أذكر لك طرفاً منها خوفاً أن تظن أنها اسم على غير مسمى إن لم ينته أحد من مشايخك القاصرين يتكلم في علم منها. فأقول ما من ولي حق له قدم الولاية إلا ويعلم العلوم اللدنية كشفاً وذوقاً لا نقلاً وفهماً."⁶⁴ وقد ذكر منها في كتابه: "ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبرى" ثلاثة وثلاثين علماً. وفي كتاب آخر له بعنوان "إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين" يقول: "ثم أن جميع ما بأيدي جميع العلماء من النقول في جميع العلوم لا يجيء نقطة من بحر علوم الأولياء."⁶⁵

ثم ذكر فيه أربعمئة وأحد عشر علماً من علومهم. وفي موضع آخر من الكتاب يقول أنه ذكر من هذه العلوم نحو ثلاثة آلاف علم في كتاب آخر له بعنوان "الدر النظيم في علوم القرآن العظيم" ويقول عن هذا الكتاب أنه "كتاب نفيس لم ينسج على منواله فيما أظن وكان الباعث على تأليفه حفظ حرمة أهل الله تعالى حين سمعت من لا خلطة له بهم ينكر عليهم وينسبهم إلى العامية والجهل."⁶⁶ وينقل عن شيخه علي الخواص قوله: "شرط من يتصدر للمشيخة وتربية المريدين أن يعرف تلامذته من يوم "ألست بربكم" وأن يعرف من يفتح له على يده ممن لا يفتح

⁶³ أشار إلى هذا الكتاب في كتابه: "إرشاد الطالبين، وأشار إلى نحو: "أحد عشر وسبعين ألف علم، كل علم منها لا يدرك له قرار ولا يمكن لأحد من غير الأولياء ولو ارتفعت درجته التسلق إلى معرفة علم منها بفكر أو بمطالعة كتب، بل، ولا يعرف أسماءها فضلاً عن الخوض فيها. ثم رأيت غالب عقول العلماء تحير فيه فضلاً عن غيرهم، فاستخرت الله تعالى ورميت به في بحر النيل" (إرشاد الطالبين، ص 82). وأضاف "وقد ذكرنا في كتابنا المسمى: "الدر النظيم في علوم القرآن العظيم" نحو ثلاثة آلاف علم منها... ص 83.

⁶⁴ عبد الوهاب الشعراني: ردع الفقرا، مصدر سابق، ص ص 206، 207.

⁶⁵ عبد الوهاب الشعراني: "إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين، تحقيق، د. مهدي أسعد عرار، بيروت،

دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 2007، ص ص 75، 76.

⁶⁶ المصدر السابق: ص 83.

له.⁶⁷ ومعلوم أن علي الخواص هذا هو شيخ عبد الوهاب الشعراني، وقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، أفرد له الشعراني كتاباً سماه " درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص. يقول في مقدمته: " فهذه نبذة صالحة من فتاوى شيخنا وقدوتنا ولي الله تعالى الكامل الراشح الأُمِّي المحمدي سيدي علي الخواص أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته وبركات علومه في الدنيا والآخرة التي سألته عنها مدة صحبتي له مترجماً عن معنى بعضها لكونه رضي الله عنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.⁶⁸ بينما مریده عبد الوهاب الشعراني كان من أكابر العلماء المشهود لهم بغزارة العلم وكثرة التأليف (ألف أكثر من مائة كتاب في مختلف فنون العلم اتسمت بالعمق والجدة في مواضيعها). والأمر نفسه وقع مع شيخ آخر أمي لا يقرأ ولا يكتب هو الشيخ عبد العزيز الدبّاغ، وقد تلمذ على يده - هو الآخر - عالم من أكبر علماء القرويين بفاس هو الشيخ أحمد بن المبارك السجلماسي المالكي (المتوفى سنة 1156هـ)، الذي ألف - هو كذلك - كتاباً جمع فيه أقوال وفتاوى ومستنبطات شيخه من القرآن والأحاديث النبوية سماه : " الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدبّاغ ". قال في مقدمته " ... فإنه لما منّ الله عليّ وله الحمد والشكر بمعرفة الولي الكامل الغوث الحافل، الصوفي الباهر نجم العرفان الزاهر صاحب الإشارات العلية والعبادات السنية والحقائق القدسية و الأنوار المحمدية والأسرار الربانية والهمم العرشية، منشئ معالم الطريق بعد خفاء آثارها ومبدي علوم الحقائق بعد خبو أنوارها الشريف الحسيب النسيب، ذي النسبتين الطاهرتين الجسمية والروحية، والسلالتين الطيبتين الشاهدية والغيبية والولایتين الكريمتين الملكية والملكوّتیة، المحمدي العلوي الحسني قطب السالكين وحامل لواء

⁶⁷ عبد الوهاب الشعراني: ردع الفقرا، ص 205.

⁶⁸ عبد الوهاب الشعراني: درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1999، ص 5.

العارفين، شيخنا وسيدنا ومولانا عبد العزيز(٠٠٠) فشاهدت من علومه ومعارفه وشمائله ولطائفه ما غمرني وبهرني وقادني بكليتي وأسرنى وسمعت منه في جانب سيد الوجود وعلم الشهود سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم من المعرفة بقدره العظيم وجاهه الكريم ما لم يطرق سمعي منذ نشأت من إنسان ولا رأيته مسطوراً في ديوان(٠٠٠) وكذا سمعت منه من المعرفة بالله وعلي صفاته وعظيم أسمائه ما لا يُكَيِّف ولا يطاق ولا يدرك الا بعبطية الملك الخلاق". ثم يشير إلى ما عرف منه بكل ما يتعلق بالأنبياء والرسل " كأنه كان مع كل نبي في زمانه ومن أهل عصره وأوانه". وإلى كل ما يتعلق بالملائكة والكتب السماوية والشرائع النبوية واليوم الآخر. "وجميع ما فيه من حشر ونشر وصراط وميزان ونعيم باهر، ما تعرف اذا سمعته أنه يتكلم عن شهود وعيان ويخبر عن تحقيق وعرفان فأيقنت حينئذ بولايته العظمى، وانتسبت لجنابه الأحمى(٠٠٠) فكل من سمعه يتعجب منه ويقول: ما سمعنا مثل هذه المعارف، ويزيدهم تعجباً كون صاحبها رضي الله عنه أمياً لم يتعاط العلم (٠٠٠) هذا مع كونهم من أكابر العلماء وفحول الفقهاء". ويختتم بالقول: " واعلم وفقك الله، أن جميع ما قيِّدْتُ إنما هو قطرات من بحر زخار لا تعرف له ساحل(٠٠٠) وأما العلوم التي في صدر الشيخ رضي الله عنه، فلا يحصيها إلا ربه الذي خصه بها." ⁶⁹

لقد تعمدت نقل هذا النص رغم طوله لنرى مقدار الاحترام والتقدير والإجلال والتعظيم الذي يسبغه هذا العالم الكبير على هذا الشيخ الأمي ولنرى كيف يعترف له بما اختصه الله به من علوم لدنية لا قبل له بها ولا قبل لغيره بها من العلماء رغم كونه كان أمياً، وفوق ذلك كان شيخاً مربياً حاز شروط التربية الظاهرة والباطنة، الحسية والمعنوية، وينقل عنه مريده الشيخ أحمد بن المبارك كيف يشترط على شيخ التربية أن يكون عالماً جامعاً، لأنه إذا كان "غير جامع

⁶⁹ عبد العزيز الدباغ: (الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ) تأليف، سيدي أحمد بن المبارك السجلهاسي المالكي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1998، ص ص 5، 6، 7.

لوصف العلم الظاهر والباطن جمعاً كاملاً فأقرب أحوال المريد معه إلى الهلاك (٠٠٠) إن الشيخ الذي يلقي إليه بالقياد هو العارف بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم الذي سقيت ذاته من نوره صلى الله عليه وسلم، حتى صار على قدم النبي صلى الله عليه وسلم، وأمدّه الله تعالى بكمال الإيمان وصفاء العرفان. فهذا هو الذي يلقي إليه بالقياد وتنبغي محبته وتنفع خلطته، فانه يجمع العبد مع ربه، ويقطع عنه الوسوس في معرفته ويرقيه في محبة النبي صلى الله عليه وسلم.⁷⁰ وحادثة شيبان الراعي مشهورة مع الإمام أحمد بن حنبل التي يوردها القشيري في رسالته ويعلق عليها بالقول: "... وشيبان الراعي كان أمياً منهم، فإذا كان حال الأمي منهم هكذا، فما الظن بأئمتهم؟"⁷¹

إن هذا معناه: أن يكون شيخ التربية أمياً لا يتنافى مع أن يكون عالماً وعارفاً، فالعلم والمعرفة لا يناقضان الأمية، والأمية ليست مانعاً مطلقاً وحتمياً لحصول العلم والمعرفة، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان نبياً أمياً بنص القرآن ومع ذلك، فليس هناك من هو أعلم منه، وقد أعطاه الله تبارك وتعالى علوم الأولين والآخرين بنص الحديث الصحيح. فاقتران العلم والمعرفة بالأمية هي معجزة خص الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، وهي أيضاً كرامة خص الله بها بعضاً من أوليائه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم كثيرون، وقد ذكرنا الشيخين علي الخواص وعبد العزيز الدباغ على سبيل المثال فقط. وقد تحققا هما الاثنان بعلوم الشريعة والحقيقة والطريقة، بدليل ما نقل عنهما من هذه العلوم في الكتابين المذكورين.

وخلاصة القول: أن شيخ التربية الصوفية ليس موظفاً معيناً من طرف هيئة رسمية كالإمام أو الواعظ أو مدرس العلوم الشرعية، بل هو ولي لله اختصه

⁷⁰ المصدر السابق: ص 336 و ص 299.

⁷¹ ينظر في: الرسالة القشيرية: ص ص 477، 478.

الله بعلوم من عنده وسخره ووقفه⁷² لعلاج قلوب عباده من أمراضها الباطنية من مثل : الرياء والنفاق والحسد والكبر والغش والكذب والنخب والبخل وغيرها. وتعميرها وتحليلتها بأخلاق القرآن على نحو ما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صحابته رضوان الله عليهم فقد " كان خلقه القرآن " كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وبذلك فاز شيوخ التربية الصوفية بفضيلة وبمكرمة الوراثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال السهروردي في عوارف المعارف " ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم، أن أحبّ عباد الله تعالى إلى الله الذين يحبّون الله إلى عباده ويحبّون الله إلى الله ويمشون على الأرض بالنصيحة".⁷³ ويقول السهروردي في شرحه لهذا الحديث: " وهذا الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مرتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى لأن الشيخ يُحبّ الله إلى عباده حقيقة، ويحبّ عباد الله إلى الله. ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله. فأما وجه كون الشيخ يحبّ الله إلى عباده، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صحّ إتباعه واقتدائه أحبه الله تعالى قال الله تعالى: " قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحبّكم الله "

⁷² قال الجنيد: " لو كان العلم الذي أتكلّم به من عندي لفني، لكنه من الحق بدأ، وإلى الحق يعود " ينظر في: المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، المجلد الأول، بيروت دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2008، ص 456. وقيل للجنيد: ممن استفدت هذا العلم الذي لم يسمع من مشايخك؟ قال: " من قعودي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة " المصدر السابق: ص 455. قال الجنيد " ما نزل من السماء إلى الأرض علم وجعل للخلق إليه سبيلا الا وجعل لي فيه حظا ونصيبا (الشعراني: ارشاد الطالبين: ص 83. وينظر كذلك: تاج العارفين: ص 175. وقصة الجنيد مع ابن سريج، حينما سأله عن مسألة فقهية فأجابه بجوابات كثيرة، فقال: يا أبا القاسم لم أكن أعرف منها سوى ثلاثة أجوبة مما ذكرت فأعدها علي، فأعدها بجوابات أخرى كثيرة فقال ابن سريج: والله ما سمعت هذا قبل اليوم فأعده، فأعده بجوابات ، فقال له: لم أسمع بمثل هذا، فأمله علي حتى أكتبه ، فقال الجنيد: لئن كنت أجريه فأنا أمليه " أي ان الله هو الذي يجري ذلك على قلبي وينطق به لساني ، وليس هذا بمستفاد من كتب ولا من تعلم وانما هو من فضل الله عز وجل يلهمني ويجريه علي لساني " تاج العارفين: ص 177.

⁷³ شهاب الدين السهروردي: عوارف المعارف، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1999 ص 53

ووجه كونه يُحِبُّ عباد الله تعالى إليه : أنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس انجلى مرآة القلب وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ولاح فيه جمال التوحيد وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلي، فأحب العبد ربه لا محالة، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى " قد أفلح من زكاها"، وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى، (....) فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية، فالشيخ من جنود الله يرشد به المريدين ويهدي به الطالبين.⁷⁴

ولعلنا نسأل: هل لازال لمثل هؤلاء المشايخ وجود في عصرنا ؟

الواقع، أن هذا السؤال كان يطرح في كل عصر، ومن طرف مشايخ التربية الصوفية المتحققين أنفسهم لما كانوا يرونه من بعض الأدعياء من تهافت وتطفل على المشيخة. فهذا عبد الوهاب الشعراني يفرد كتاباً لردع هؤلاء الأدعياء المتمشixin سماه: " ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبرى " وقد صدره بقوله: "وأرجو من الله الكريم أن كل من نظر فيه بالأدب من مشايخ هذا العصر علم يقينا أنه لم يشم رائحة الولاية فضلاً عن حصولها فيستريح من الدعاوى الكاذبة لأنه يجد نفسه عارياً عن صفات الأولياء."⁷⁵ وفي مكان آخر من الكتاب يقول: " وقد كثر في هذا الزمان الخبيث التصدر لباب السلوك من القاصرين لقلة من يناقشهم، لأن الأولياء كلهم استتروا لعظم ما يشاهدون من البلاء (....) إن ترك العارفين فتح هذا الباب (أي المشيخة) في هذا الزمان هو عين الأدب مع الله تعالى."⁷⁶ ويحدد أبو حامد الغزالي على سبيل الإجمال مواصفات الشيخ المري، وبعدها يقول "ولكن وجود مثله نادر، أعز من الكبريت الأحمر، ومن ساعدته السعادة فوجد شيخاً كما ذكرنا، وقبله الشيخ ينبغي أن يحترمه ظاهراً وباطناً."⁷⁷

⁷⁴ المصدر السابق: ص 53.

⁷⁵ عبد الوهاب الشعراني: ردع الفقرا ، ص ص 203، 204.

⁷⁶ المصدر السابق: ص ص 231 ، 250.

⁷⁷ أبو حامد الغزالي: رسائل الغزالي، مصدر سابق، ص 263.

وليس الأمر مقصوراً على أهل العصور الإسلامية المتأخرة نسبياً ولا على أهل العصور التالية لها، بل إننا نجد ذلك كذلك من العلماء في العصور المتقدمة من يشتكي ذهاب هذا العلم وأهله. فهذا الجنيد - وهو سيد الطائفة وإمامها - كان يقول: " علمنا هذا الذي نتكلم فيه قد طوي بساطه منذ عشرين سنة وإنما نتكلم في حواشيه (٠٠) لقد كنت أجالس قوماً سنين يتحاورون في علوم لا أفهمها ولا أدري ما هي وما بليت بالإلكار قط. كنت أقبّلها وأحبها من غير أن أعرفها (٠٠٠) كنا نتجاري مع إخواننا قديماً في علوم كثيرة، ما تُعرف في وقتنا هذا ولا سألني عنها أحد، وهذا باب قد أغلق وردم.⁷⁸ وهذا أبو طالب المكي يقول في كتابه "قوت القلوب": " قال بعض علمائنا أعرف للمتقدمين سبعين علماً كانوا يتحاورونها ويتعارفونها في هذا العلم لم يبق منها اليوم علم واحد يعرف"⁷⁹. وهذا القشيري في مقدمة رسالته يعني ذهاب المشايخ وانقطاعهم فيقول: " ...ثم اعلّموا رحمكم الله، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل:

أما الخيام فإنها نكيامهم وأرى نساء الحي غير نساءها.
حصلت الفترة في هذه الطريقة... لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة . مضى
الشيوخ الذين كان بهم اهتداء وقلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم
اقتداء."⁸⁰ وعلّق ابن عربي على ما قال القشيري فقال: " قال هذا في زمانه حيث أدرك من تزيّاً بزي القوم وخالفهم في باطنه وأما اليوم فلا خيام ولا نساء". وهذا أبو مدين شعيب يقول في رائيته:
واعلم أن طريق القوم دارسة وحال من يدعيها اليوم كيف ترى.

⁷⁸ الجنيد: (تاج العارفين) ص ص 175 ، 176.

⁷⁹ أبو طالب المكي: قوت القلوب ، بيروت، دار صادر ، د، ت ، ص 162.

⁸⁰ القشيري: الرسالة، ص 13.

ويقول شارح الرؤية ابن عطاء الله السكندري في شرحه لهذا البيت: "...وهكذا شأن طريق القوم لعزتها كأنها في كل عصر مفقودة، وذلك أن الجوهر النفيس لا يزال عزيز الوجود يكاد لعزته يحكم بأنه ليس بموجود (٠٠٠) والطريق بأهلها مخفية في العالم خفاء ليلة القدر في شهر رمضان وخفاء ساعة الجمعة في يومها حتى يجتهد الطالب في طلبه بقدر الإمكان (٠٠٠) ان الشيخ موجود وكيف لا يكون موجودا وعمارة العالم إنما هي بأمثاله فان العالم شخص والأولياء روحه، فما دام العالم موجوداً لا بد من وجودهم لكن لشدة خفائهم وعدم ظهورهم حكم بفقدانهم".⁸¹ ويقول ابن عجيبة " إن الصوفية المحققين السالكين على منهاج المتقدمين قد قلّوا جداً حتى كأن علومهم ماتت وبليت وصارت رميمًا وطرقهم قد طمست وأذواقهم قد اندرست ولم يبق على منهاجهم إلا القليل (٠٠٠) ففي كل عصر يقول أهله: قد ذهب التصوف وذهب أهله لما يرون ما انكب عليه الجاهلون وما استجلبه المدّعون".⁸² وسأل أحد الفقهاء الشيخ الأمي عبد العزيز الدباغ عن ما نُقل عن الشيخ زروق من أنه قال " إن التربية بالاصطلاح انقطعت ولم يبق إلا التربية بالهمة والحال وعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة أو نقصان. هل ذلك خاص بزمانه أم هي منقطعة إلى نزول سيدنا عيسى عليه السلام ؟ فإن قلتم انقطع فما سبب قطعه ؟ وإن قلتم هو باق فمن الشيخ الذي تعطى له روح المريد يتصرف فيها بالخلوة كيف يشاء عينه لنا في أي إقليم وبلاد ممن نجح على يده أحد من العباد؟ ". فأجابه إجابة طويلة تعرض فيها لمفهوم التربية الصوفية وكيف تأثرت بالمتغيرات الاجتماعية والنفسية للمكون البشري في المجتمع الإسلامي وكيف مورست. " إلى أن اختلط الحق بالباطل والنور بالظلام فصار أهل الباطل يربون من يأتهم بإدخال الخلوة وتلقين الأسماء على نية فاسدة وغرض مخالف للحق

⁸¹ ابن عطاء الله السكندري: عنوان التوفيق في آداب الطريق، تحقيق، د. خالد زهري، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2004، ص ص 53، 54.

⁸² ابن عجيبة: الفتوحات الإلهية، مصدر سابق، ص 11.

(...) وكثر الأمر في الأعصر التي أدركها الشيخ زروق رضي الله عنه وأدركها شيوخه فظهر لهم من النصيحة لله ولرسوله أن يشيروا على الناس بالرجوع عن هذه التربية التي كثر فيها المبطلون وأن يقفوا بالناس في ساحة الأمن التي لا خوف فيها ولا حزن، وهي إتباع السنة والكتاب اللذين لا يضل من اهتدى بهما . فكلهم رضي الله عنهم خرج مخرج النصيحة والاحتياط، ولم يريدوا رضي الله عنهم الانقطاع رأساً للتربية الحقيقية وحاشاهم من ذلك، فان نور النبي صلى الله عليه وسلم باق وخيره شامل وبركته عامة إلى يوم القيامة. "أما عن تعيينه في أي اقليم أو بلد، فأجاب: "إن الموصوف المذكور متعدّد والحمد لله في البلاد والعباد، فلا تخرج عن أهل السنة والجماعة واطلبه تجده".⁸³

واضح إذن أن المسألة لا تتعلق بانقطاع وجود شيخ التربية، بل تتعلق بخفائه، فهو موجود. وخفاؤه لا يدل على انقطاعه. " ففي كل زمان رجال يرحم الله بهم عباده، فالعدد المعلوم لا ينقطع حتى ينقطع الدين".⁸⁴ إذ " لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها ولا أبرزت الأرض نباتها".⁸⁵ وأجمعوا على أن فساد الوقت بفساد نوايا الناس وأفعالهم وبإتباع الهوى والانغماس في متع الدنيا وإعجاب كل ذي رأي برأيه، بحيث لا تنفع معهم تذكرة ولا موعظة، هو الداعي لهؤلاء المشايخ الأولياء المرشدين إلى الاختفاء، بل أن الله تعالى هو الذي " آثرهم ذلك " - كما قال ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن - لأن أولياء الله تعالى عرائس ولا يرى العرائس المجرمون، - كما يقال - ومع ذلك فانه " لا بد أن يكون منهم في الوقت أئمة ظاهرون، قائمون بالحجة سالكون للمحجة، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناورهم إلى قيام الساعة ".

⁸³ عبد العزيز الدباغ: الإبريز، مصدر سابق، ص 299.

⁸⁴ ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن، ص 12.

⁸⁵ المصدر السابق، ص 18.

وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه: " اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في عباده وبلاده." ⁸⁶ قال عنهم ابن عطاء الله السكندري: " واعلم، أنه سواء منهم الظاهر والخفي والصدّيق والولي، فساد الوقت لا يكدر أنوارهم ولا يحط مقدارهم، لأنهم مع المؤقت لا مع الأوقات." ⁸⁷ ويقول ابن عجيبة في الفتوحات الإلهية: "... فقد أدركنا - والحمد لله - في زماننا هذا رجالاً قد توفر فيهم شروط التربية على الكمال، ذووا همّة وحال ومقال، عارفين راسخين كاملين، تخرج على أيديهم خلق كثير وانتفع بهم جمع غفير، ولكن من كان خفاشاً لا يستطيع أن يبصر شعاع النور." ⁸⁸

وهذا، إنما يدل على أن الشيخ المربي موجود في كل زمان. كان موجوداً منذ العصور الأولى للإسلام، ولا يزال موجوداً إلى الآن في كل بلاد الإسلام وسيظل موجوداً في كل عصر وآن. فربما ظهر في عصر وربما استتر في عصر آخر، وربما غلب ظهوره استتاره في عصر، وربما غلب استتاره ظهوره في عصر آخر. فلا يعرفه إلا أرباب البواطن والبصائر دون أهل العمل الظاهر. ⁸⁹ والاستتار هنا، ليس استتاراً جسمانياً، بل هو استتار حال واستتار هوية، بحيث لا يظهر بحال أو بهوية يتميز بهما عن باقي أفراد المجتمع، فهو واحد منهم، وذلك لأن غالب أعماله التي يتميز بها عن أقرانه تصير قلبية لا يظهر منها على ظاهره إلا ما يتميز به عن العامة من الفرائض والسنن المؤكدة. ⁹⁰ فقد يكون غنياً وقد يكون فقيراً، قد يكون صاحب حرفة وقد يكون تاجراً، قد يكون موظفاً عادياً وقد يكون مسؤولاً، قد

⁸⁶ ينظر: ابن عجيبة: الفتوحات الإلهية، ص 13 و ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن، ص 19.

⁸⁷ ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن، ص 20.

⁸⁸ ابن عجيبة: الفتوحات الإلهية، ص 64.

⁸⁹ عبد الوهاب الشعراني: الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق تحقيق، أحمد فريد

المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2008، ص 16.

⁹⁰ المرجع نفسه، ص 16

يكون شيخاً وقد يكون شاباً، قد يكون عالماً أو متوسط التعليم وقد يكون أمياً. و يؤثر على عليّ كرم الله وجهه أنه قال: "إن الله أخفى ولايته في عباده فلا تحقرن من عباده أحداً".

إذا كان الأمر هكذا فكيف الوصول إليه وهو في حال الاستتار؟ هذا ما سنحاول معرفته عند حديثنا عن صدق التوجه لدى المريد.

الركن الثاني: المريد: يعرفه القاشاني في لطائف الإعلام بأنه " من عزفت نفسه عن طيبات الدنيا وأعرض عن لذاتها لتلذذه بوظائف العبادات.⁹¹ ويعرفه ابن عربي في اصطلاحات الصوفية بأنه: "هو المتجرد عن إرادته".⁹² وقد أخذ القاشاني بهذا التعريف فاعتبر التجرد " هو أعلى مقامات الإرادة، بل المريد لله تعالى حقيقة، إنما هو من كان كذلك، فان لم يتجرد عن إرادته لا يعدُّ مريداً لله تعالى، بل مريداً لذلك المراد الذي لم يتجرد عنه".⁹³ وفي الرسالة القشيرية: "المريد على موجب الاشتقاق من له إرادة، كما أن العالم من له علم لأنه من الأسماء المشتقة، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة: من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق، لا يكون مريداً".⁹⁴ وربط أبو بكر الكلاباذي بين المريد بإرادة إنسانية وبين المراد بإرادة إلهية، فجعل الثانية سبباً للأولى وأصلاً لها، ف" المريد: مراد في الحقيقة، والمراد مريد لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله عز وجل تقدمت له. قال الله تعالى: " يحبهم ويحبونه" وقال: " رضي الله عنهم ورضوا عنه " وقال: " ثم تاب الله عليهم ليتوبوا ". فكانت إرادته لهم سبب إرادتهم له، (....) فجعل المريد مراداً والمراد مريداً، غير أن المريد هو الذي سبق اجتهاده كشوفه، والمراد هو الذي سبق

⁹¹ عبد الرزاق القاشاني: لطائف الإعلام، مصدر سابق، ص 399.

⁹² ابن عربي: اصطلاحات الصوفية، (عربي، فرنسي، انجليزي) اعداد وتقديم: د. عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى 1999، ص 5.

⁹³ عبد الرزاق القاشاني: لطائف الإعلام، ص 399.

⁹⁴ القشيري: الرسالة، ص 275.

كشوفه اجتهاده.⁹⁵ وبالمعنى نفسه قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: "إن المريد والمراد واحد، إذ لو لم يكن مراد الله عز وجل بأن يريده لم يكن مريداً، ولا يمكن إلا ما أراد، لأنه إذا أراد الحق بالخصوصية وفقه بالإرادة."⁹⁶ وسئل الجنيد عن المريد والمراد فقال: "المريد: تتولاه سياسة العلم، والمراد: تتولاه رعاية الحق، لأن المريد يسير، والمراد يطير" فالمريد طالب والمراد مطلوب، عبادة المريد مجاهدة، وعبادة المراد موهبة. والإرادة في اصطلاح أهل الحقيقة: هي "نهوض القلب في طلب الحق سبحانه، وترك ما عليه العادة. وعادة الناس في الغالب: الإقامة في أوطان الغفلة، والسكون إلى إتياع الشهوات، فمن خرج عن ذلك سمي مريداً."⁹⁷

شروط المريد:

أولاً: صدق التوجه : لقد تساءلنا قبل قليل فقلنا: أنه إذا كان الغالب على شيخ التربية الاستتار، فكيف الوصول إليه ؟

الحقيقة: أن الوصول إلى شيخ التربية ليس مستحيلاً بل، وليس مستعصياً. إنما هو من باب السهل الممتنع، فقد أجمع المشايخ على وجوب أن يكون المريد صادقاً في توجهه، أي صادقاً في طلبه الطريق وصادقاً في طلبه الشيخ. "لا تخرج عن أهل السنة والجماعة واطلبه تجده."⁹⁸ "ما من أحد طلب أمراً بصدق وجد إلا أدركه."⁹⁹ "فاجتهد واصدق في الطلب تجد المطلوب، وإذا وصلت إلى الشيخ فقد أوصلك الله."¹⁰⁰ وفي الحكم العطائية: "سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه" (الحكمة 156). فالوصول إلى الشيخ المربي الذي يوصل إلى معرفة الله لا يكون إلا بصدق

⁹⁵ الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص 103.

⁹⁶ الجيلاني: الغنية ، ص 441.

⁹⁷ محمد شمس الدين الرازي: حقائق الحقائق، مصدر سابق، ص 201.

⁹⁸ عبد العزيز الدباغ: الإبريز ص 299.

⁹⁹ الجنيد (تاج العارفين) ص 145.

¹⁰⁰ بن عطاء الله: عنوان التوفيق، ص 54.

التوجه. وقد أفرد الشيخ عبد الوهاب الشعراني كتاباً سماه: "الكوكب الشاهق في الفرق بين المرید الصادق وغير الصادق" يتحدث فيه عن أخلاق المریدین الصادقین، وقد افتتحه بالقول: "ومن أخلاقهم: إذا أراد أحدهم الأخذ عن أحد من مشايخ عصره أن يصوم ثلاثة أيام أو سبعة أيام ملازماً للصمت وقلة الأكل فيها، فإذا انقضت صلي ركعتين وسأل الله تعالى في سجوده وبعد سلامه منها أن يجمعه على عارف الزمان ويرزقه الاعتقاد فيه والانقياد له."¹⁰¹ وينقل عن الشيخ علي المرصفي قوله: "سبب اختفاء الصادقين من أهل الله في كل عصر وزمان قلة صدق الطالبين الطريق بصدق."¹⁰² ويقول القشيري في الرسالة " فأول قدم للمرید في هذه الطريقة، ينبغي أن يكون على الصدق ليصح له البناء على أصل صحيح."¹⁰³ لأن الطريق عزيزة وأهلها أعز منها، والطالب لها بصدق أعز من الكبريت الأحمر."¹⁰⁴ وعلى هذا: نخلص إلى أن الإشكال في التربية الصوفية - قديماً وإلى الآن - ليس في انعدام الشيخ المرید، بل الإشكال يكمن أساساً، في وجود المرید الذي يطلب الشيخ بصدق.

ثانياً: الإلتزام بالآداب والأخلاق :

- الآداب مع الشيخ

- آداب الصحبة

- الآداب العامة

أ: الآداب مع الشيخ: على سبيل المثال و الإجمال هي:

أن يتوب إلى الله سبحانه من كل زلّة، فيدع جميع الزلات، سرّها وجهرها، صغيرها وكبيرها، أن يكون صادقاً في الطلب، فلا تغيّره المحن والشدائد عن المحبة

¹⁰¹ عبد الوهاب الشعراني: الكوكب الشاهق، مصدر سابق، ص 15.

¹⁰² المصدر السابق ، ص 16.

¹⁰³ القشيري: الرسالة، ص 476.

¹⁰⁴ عبد الوهاب الشعراني: الكوكب الشاهق، ص 15.

المفرطة الصادقة لشيخه أكثر من نفسه وماله وولده، معتقداً أنه لا يحصل له المقصود من الله تعالى إلا بتوسط شيخه. أن يسلب اختيار نفسه باختيار الشيخ في جميع الأمور، كلية أو جزئية، عبادة أو عادة. أن يغض الصوت في مجلسه. أن لا يكتف شئناً من الأحوال والخواطر والواقعات والكشوف والكرامات وما وهبه الله له عن الشيخ. وأن لا ينقل من كلام الشيخ عند الناس إلا بقدر عقولهم وأفهامهم

أن يكون مستسلماً منقاداً راضياً بتصرفات الشيخ، يخدمه بالمال والبدن، لأن جوهر الإرادة والمحبة لا يتبين إلا بهذا الطريق، ووزن الصدق والإخلاص لا يعلم إلا بهذا الميزان. أن لا يكلم الشيخ إلا في حال البسط بالأدب والخضوع والخشوع من غير زيادة على الضرورة، مصغياً بتوجه تام إلى جواب الشيخ.

وأن لا يتوجه إلا لما أراده الشيخ رافعاً نظره عن الغير فانياً في أقوال الشيخ وأفعاله وصفاته وذاته لما قيل: أن الفناء في الشيخ مقدمة الفناء في الله .

وأن يبادر بإتيان ما أمره به الشيخ بلا توقف ولا إهمال ولا تأويل، من غير استراحة ولا سكون قبل تمام ذلك الأمر.

وأن لا يعترض بالقلب على أفعال الشيخ، ومهما قدر على تأويلها يؤولها لأن الاعتراض أقبح من كل قبح، والمعتراض لا يكون معذوراً، فالحجاب الذي ينشأ من الاعتراض ليس له علاج، ورفعته متعذر، ويسد مجاري الفيض على المرید.

أن يظهر الخواطر، خيراً وشرّاً لشيخه حتى يعالجها، فإن الشيخ كالطبيب. أن لا يقتدي بأفعال الشيخ العادية، إلا أن يأمره بها بخلاف الأقوال، لأن الشيخ قد يعمل بعض الأعمال بحسب مقامه وحاله، وذلك العمل يكون على المرید سماً قاتلاً

وأن يعمل بما لقنه الشيخ من ذكر أو توجه أو مراقبة، وترك جميع الأوراد غير المأثورة، لأن فراسة الشيخ اقتضت تخصيصه بذلك، وهي من نور الله.

وأن لا يخون شيخه في أمر من الأمور، وأن يحترمه ويعظمه على أقصى الوجوه. وأن لا يرد كلام الشيخ، وإن كان الحق مع المريد، بل يعتقد أن خطأ الشيخ أقوى من صوابه، ولا يشير للشيخ بشيء إن لم يسأله. وأن يكون منقاداً مستسلماً لأمر الشيخ ولمن يقدمه عليه من الخلفاء والمريدين، وإن كان عملهم أقلّ من عمله الظاهري. أن لا يظهر حاجته إلى أحد غير شيخه. وأن لا يتكلم بين يدي الشيخ إلا في حالة الضرورة، وأن لا يظهر شيئاً من مناقب نفسه بين يديه. أن يكتف ما أولاه الله عز وجل من سره. أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ، بل يحب للشيخ كل منزلة عالية، ويتمنى للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب، وبهذا يظهر جوهر المريد في حسن الإرادة".⁽¹⁰⁵⁾.

ب: آداب الصحبة:

"الصحبة في اللغة والحقيقة بمعنى واحد. وهي عند أهل الحقيقة على ثلاثة أقسام: - صحبة مع من فوقك، وهي في الحقيقة خدمة. - وصحة مع من دونك، وهي تقتضي رحمة من المتبوع وشفقة عليه، وتوجب على التابع الوفاء والحرمة. وصحة الأكفاء والنظراء، وهي مبنية على الإيثار والفتوة. فمن صحب شيخاً فوقه في الرتبة، فأدبه ترك الاعتراض عليه ظاهراً وباطناً وحمل ما يبدو منه على وجه جميل، وتلقى أحواله بالإيمان به. ومن صحب مثله، فسبيله التعامي عن عيوبه وتأويل ما ينكر منه بأحسن التأويلات مهما أمكن، فإن لم يجد له وجهاً عاد إلى نفسه بالتهمة واللوم".⁽¹⁰⁶⁾.

¹⁰⁵ ينظر في: شمس القلوب: لأبي القاسم عبد الرحمن اللجائي: تحقيق، د. محمد الديباجي، بيروت دار صادر، الطبعة الأولى 2003 ص ص من 249 الى 260. وجامع الأصول: صص من 292 الى 294 والغنية: صص من 447 الى 451 و الملع: ص 188 والرسالة القشيرية: صص من 476 الى 490 و عوارف المعارف: صص من 235 الى 242.

¹⁰⁶ ينظر في: الرسالة القشيرية: ص ص 371 الى 375 و حقائق الحقائق: صص من 221 الى 223.

وعرّف القاشاني الخلق بـ "حسن الصحبة مع الحق والخلق، أما مع الحق فالوفاء بعهده والشكر على كل ما منه، والذر من كل ما منك، وأما مع الخلق فبذل المعروف وكف الأذى واحتماله"⁽¹⁰⁷⁾. وقال ذو النون المصري: "لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناسبة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة. وقال يوسف بن الحسين، قلت لذي النون: مع من أصحب؟ فقال: مع من لا تكتمه شيئاً يعلمه الله تعالى منك. وقال رجل لذي النون: مع من أصحب؟ فقال: مع من إذا مرضت عادك، وإذا أذنبت تاب عليك. ويورد القشيري لأبي بكر التلساني قوله: "اصحبوا مع الله، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله، لتوصلكم بركات صحبتهم إلى صحبة الله عز وجل"⁽¹⁰⁸⁾. وقال أبو سعيد الخراز: صحبت الصوفية خمسين سنة، فما وقع بيني وبينهم خلاف، قيل: ولم ذلك؟ قال: لأنني كنت على نفسي". وهذا معناه أنه كان منشغلاً بعيوبه عن عيوب الناس.

وسأل رجل الجنيد: من أصحب؟ فقال: من يقدر أن ينسى ماله ويقضي ما عليه. ويروى عن أبي أحمد القلانسي وكان من مشايخ الجنيد، أنه قال: صحبت قوماً بالبصرة فأكرموني، فقلت يوماً مرة: أين إزارى؟ فسقطت من أعينهم. وحكي عن إبراهيم بن شيبان أنه قال: كما لا نصحب من يقول "نعي"⁽¹⁰⁹⁾. وهذا معناه أن الصحبة في عرفهم تسقط ملكية الشيء والاختصاص به. ويذكر السهروردي في عوارف المعارف، عن بعضهم وقد سئل: على أي شرط أصحب الخلق؟ فقال: إن لم تبرهم فلا تؤذهم، وإن لم تسرهم فلا تسؤهم. ومن حقوق الصحبة: أنه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر أخاه إلا بخير.

¹⁰⁷ عبد الرزاق القاشاني معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق، عبد العال شاهين، القاهرة، دار المنار، ط 1- 1992، ص 258.

¹⁰⁸ القشيري: الرسالة، ص 374، 375 و السهروردي: عوارف المعارف، ص 251.

¹⁰⁹ ينظر في: عبد الرحمن السلمي: المقدمة في التصوف، تحقيق، د. يوسف زيدان، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى 1999، ص 22 وفي: تاج العارفين: ص 144 و الرسالة القشيرية: ص 372.

ثم إن اختيار الصحبة والأخوة عمل، وكل عمل يحتاج إلى النية وإلى حسن الخاتمة، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الخبر الطويل: "سبعة يظلهم الله تعالى... فمنهم: اثنان تحابا في الله فعاشا على ذلك وماتا عليه" إشارة إلى أن الأخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة، ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول.⁽¹¹⁰⁾ وسئل بعضهم عن أدب المريدين في الصحبة، فقال: "حفظ حرمان الشيخ، وحسن العشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر، وترك صحبة من ليس في طبقتهم، وملازمة الإيثار، ومجانبة الادخار، والمعاونة في أمر الدين والدنيا (....) والتغافل عن زلل الإخوان، والنصح في ما يجب فيه النصيحة، وكتم عيب صاحبه، وإطلاعه على عيب يعلم منه، والقيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم، وتقديم من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس والإيثار بالموضع. ومن أذهبهم في الصحبة: ترك صحبة من همّهم شيء من فضول الدنيا وبذل الإنصاف للإخوان وترك مطالبة الإنصاف، ولين الجانب، والتعطف على الأصاغر، وأن لا يتكلفوا للإخوان، وستر عوراتهم والاستغفار لهم بظهر الغيب، والاهتمام لهم مع الله تعالى في دفع المكروه عنهم وترك المداينة، وأن لا يُحَوِّجُوا أصحابهم إلى المداينة ولا يُلْجِئُونَهُ إِلَى الاعتذار ولا يتكلفون للصاحب ما يشق عليه، قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "شر الأصدقاء من أحوجك إلى مداينة أو ألجأك إلى اعتذار أو تكلفت له."⁽¹¹¹⁾ وأورد أبو طالب المكي في كتابه "قوت القلوب" وصية رجل يحتضر لابنه قائلاً له: "يا بني إن عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى منك سيئة سدها اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن

¹¹⁰ ينظر في: عوارف المعارف ص 252، وفي: قوت القلوب الجزء الثاني، ص 215.

¹¹¹ ينظر في: عوارف المعارف: ص ص من 254 إلى 258، واللع: من 163 إلى 193.

سكتَّ ابتداءً، وإن نزلت بك نازلة واساك. اصحب من إذا قلت صدق قولك وإذا حاولت أمراً أمرك وإن تنازعتما أثرك." (112) وفائدة الصحبة ثلاثة أمور: "أحدها: أنها حصن من الانقلاب والرجوع، فإن رؤية الشيخ والجلوس معه ترياق مجرب، فلا تميل نفسه إلى الفضول أبداً ما دام مع الشيخ". الثاني: أن علم القلوب، إنما يقوى مدده بالصحبة، فمن تحقق بحالة لا يخلوا حاضروه منها، والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يعلم، "والمرء على دين خليله" "والمؤمن مرآة أخيه" وما كان في المرآة انطبع في المرآة المقابلة لها. الثالث: "أن الإنسان مبتلى بنفسه، فإذا انفرد وحده ظهر له أنه على شيء، وليس كذلك." وعلى هذا: "فلا بد من صحبة أخ صالح أو شيخ ناصح لتحصل السلامة من الرعونات وغيرها، ولا يتأدب الفقير وحده أبداً، وإنما يتأدب إذا صحب أهل الأدب." (113)

ج : الآداب العامة :

وهي الضوابط الجامعة لخصال الخير التي يتحراها المريد في سلوكه اليومي بغية التطبع عليها لتزكية باطنه، لأن حسن الأدب في الظاهر، عنوان حسن الأدب في الباطن - كما يقال - وقد أفاض مشايخ التربية الصوفية في ذكر هذه الآداب وحث المريدين على التحلي بها، منها مثلاً:

آداب العبادة: (الوضوء، الغسل، الصلاة، الصوم، الإفطار، قيام الليل، قراءة القرآن، الذكر...الخ) آداب العادة: (الأكل، الشرب، الجلوس والمجالسة، اللباس، النوم، المشي، الزيارة، عيادة المريض، السفر، البيع، الشراء...الخ) (114).

¹¹² ينظر في: قوت القلوب: الجزء الثاني، ص 216.

¹¹³ أحمد بن عجيبة: الفتوحات الإلهية: ص 198.

¹¹⁴ ينظر في: اللع: ص ص من 136 الى 193، و عوارف المعارف: صص من 170 الى 254، و الغنية: صص من 445 الى 468، والرسالة القشيرية: صص من 360 الى 374، و قوت القلوب: الجزء الثاني، ص ص من 178 الى 261، ويرجع كذلك الى ما أفرد عبد الوهاب الشعراني من كتب في آداب المريدين، ومنها: الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصدق، ولوائح الأنوار القدسية في

وخلاصة آداب المريد: " أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه، فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله " (115).

الركن الثالث: المجاهدة:

أما الركن الثالث وهو البيعة أو أخذ العهد أو التلقين ونعني به هنا منظومة الأفعال والأقوال والقيم التي توجه سلوك المريد الوجهة الصحيحة في حالي التحلية والتخلية للوصول إلى معرفة الله والتحقق بمقام العبودية . وهذا لا يتحقق إلا بالمجاهدة التي عرّفها القاشاني بأنها: " هي حمل النفس على المشاق البدنية، ومخالفة الهوى على كل حال. " (116) وفي معجم التعريفات للجرجاني: " المجاهدة: في اللغة: المحاربة. وفي الشرع: محاربة النفس الأمّارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع. " (117) والأصل في المجاهدة: قوله تعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " وقوله عليه الصلاة والسلام " المجاهد من جاهد نفسه في الله " و قوله أيضاً: " رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله، ما الجهاد الأكبر؟ قال: ألا وهو مجاهدة النفس ". وقد أخذنا هنا برأي ابن خلدون الذي قسّم المجاهدة إلى ثلاثة أقسام في كتابه: "شفاء السائل لتهديب المسائل": الأول: مجاهدة التقوى وهي الوقوف عند حدود الله.

الثاني: مجاهدة الاستقامة وهي تقويم النفس وحملها على التوسط في جميع أخلاقها، حتى تهذب بذلك وتتحقق به، فتحسّن أخلاقها.

الثالث: مجاهدة الكشف وهي إخماد القوى البشرية وخلع الصفات البدنية بمنزلة ما يقع للبدن بالموت. وقد وضعوا لها خمسة شروط: حصول التقوى.

بيان العهود الحمديّة ، والبحر المورود في المواثيق والعهود، وارشاد الطالبين الى مراتب العلماء العاملين، والأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، ومدارج السالكين، والأنوار القدسية في بيان آداب العبودية....

115 السهروردي: عوارف المعارف : ص 313.

116 عبد الرزاق القاشاني: لطائف الإعلام في اشارات أهل الإلهام: مصدر سابق، ص 386.

117 الجرجاني: معجم التعريفات: مصدر سابق، ص 171.

حصول الاستقامة. الاقتداء بشيخ سالك. قطع العلائق كلها عن النفس بالزهد في كل شيء. صدق الإرادة وهو أن يستولي حب الله على قلب المريد.⁽¹¹⁸⁾ ثم إن مقامات المجاهدة المطلوب اكتسابها مثل التوبة والتوكل والورع والزهد وغيرها من المقامات تختلف عندهم تفسيراتها باختلاف الباعث على المجاهدة من تقوى أو استقامة أو عرفان، كالتوبة مثلاً فإن توبة المبتدئ مغيرة لتوبة المنتهي. وهكذا في كل المقامات. فالمقامات هي بحسب درجات الترقى. أو هي: "منازل" كما سماها الهروي الأنصاري وعنون بها كتابه المشهور: "منازل السائرين" الذي صدره بالقول: "وجميع هذه المقامات تجمعها رتب ثلاث:

الرتبة الأولى: أخذ القاصد في السير.

الرتبة الثانية: دخوله في الغربة.

الرتبة الثالثة: حصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد في طريق الفناء. وبعد أن يؤصل للرتب الثلاث إسلامياً بالأحاديث النبوية، يُجمل كل المقامات في عشرة أقسام هي:

قسم البدايات، قسم الأخلاق، قسم الأحوال، قسم الأبواب، قسم الأصول، قسم الولايات، قسم النهايات، قسم المعاملات، قسم الأودية، وقسم الحقائق، ثم يُقسّم كل قسم من هذه الأقسام إلى أبواب، فمثلاً: يقسم قسم البدايات إلى عشرة أبواب وهي:

اليقظة، التوبة، والمحاسبة، والإنابة، والتفكير، والتذكر، والاعتصام، والفرار، والرياضة، والسماع ويقسم قسم النهايات كذلك إلى عشرة أبواب وهي: المعرفة، والفناء، والبقاء، والتحقيق، والتلبس، والوجود، والتجريد، والتفريد، والجمع، والتوحيد. ثم يورد لكل باب تعاريف بحسب درجة السلوك، ثم يخلص إلى القول: "وإني مُفَصِّل لك درجات كل مقام منها لتعرف درجة العامة

¹¹⁸ ينظر في: عبد الرحمن بن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل، ضمن سلسلة، مصادر الفلسفة تونس، الدار العربية للكتاب، 2006، ص ص من 192 إلى 205.

منه، ثم درجة السالك، ثم درجة المحقق، ولكل منهم شرعة ومنهاج ووجهة هو مولاها.⁽¹¹⁹⁾

وخلاصة القول في المجاهدة: هو ما أجمع عليه كل مشايخ الطريقة. من أن النهايات لا تصحّ إلا بتصحيح البدايات، كما أن الأبنية لا تقوم إلا على أساس. وتصحيح البدايات هو إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص، ومتابعة السنة وتعظيم النهي على مشاهدة الخوف، ورعاية الحرمة والشفقة على العالم ببذل النصيحة وكف المؤنة ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت، وكل سبب يفتن القلب⁽¹²⁰⁾.

¹¹⁹ عبد الله الأنصاري الهروي: منازل السائرين، بغداد، مكتبة الشرق الجديدة، 1990 ص ص 10،9.

¹²⁰ المصدر نفسه ص:7

المصادر والمراجع :

- 2/ أبو العلا عفيفي: مقدمة كتاب: في التصوف الإسلامي وتاريخه لرينولد نيكلسون، ترجمة وتعليق، أبو العلا عفيفي: القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1947.
- 3/ أبو الوفا التفتازاني: مدخل الى التصوف الإسلامي: القاهرة، دار الثقافة، 1974
- 4/ قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام: ترجمه عن الفارسية، صادق نشأة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1972
- 5/ أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، بيروت دار الشعب للطباعة والنشر د، ت.
- 6/ محمد عابد الجابري: العقل الأخلاقي العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 2001.
- 7/ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام، بيروت دار الكتاب اللبناني 1989
- 8/ علي سامي النشار: تشأة التفكير الفلسفي في الإسلام، الجزء الثالث، القاهرة دار المعارف، الطبعة التاسعة،
- 9/ عبد الرزاق القاشاني: لطائف الإعلام في اشارات أهل الإلهام، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2004
- 10/ أحمد بن عجيبة: الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، بيروت دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2000
- 11/ أحمد بن عجيبة: معراج التشوف الى حقائق التصوف، القاهرة، مكتبة أم القرى، الطبعة الأولى، 2002
- 12/ محمد شمس الدين الرازي : حقائق الحقائق، تحقيق وتقديم، سعيد عبد الفتاح، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 2002

- 13/ الهجويري (أبو الحسن علي بن عثمان): كشف المحجوب، الجزء الثاني
ترجمة، اسعاد عبد الهادي قنديل، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2007.
- 14/ أبو نصر عبد الله السراج: اللّمع في تاريخ التصوف الإسلامي، بيروت،
دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 2001
- 15/ ابن عربي: الحكم (شرح حكم الشيخ الأكبر) تأليف، الشيخ ملا حسن
بن موسى، تحقيق، الشيخ أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة
الأولى، 2006
- 16/ ضياء الدين أحمد الكمشاوي : جامع الأصول في الأولياء، تحقيق،
أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2002.
- 17/ أبو بكر محمد الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، بيروت، دار
صادر الطبعة الأولى 2001
- 18/ الشيخ عبد القادر الجيلاني: سر الأسرار ومظهر الأنوار في ما يحتاج
اليه الأبرار، تحقيق، أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية الطبعة الثانية
2007
- 19/ ابن عطاء الله السكندري: تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس،
بيروت، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 2005.
- 20/ ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، القاهرة، المكتبة الأزهرية
للتراث، 2005
- 21/ الجنيد: (تاج العارفين) الأعمال الكاملة، جمع وتحقيق، د. سعاد
الحكيم، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثانية 2005
- 22/ أبو عبد الرحمن محمد السلمي: طبقات الصوفية، تحقيق، مصطفى عبد
القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1998
- 23/ أبو مدين شعيب: أنس الوحيد ونزهة المريد، تحقيق، د. خالد زهري،
بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2004

- 24/ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، بيروت، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1998
- 25/ عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق، طه عبد الباقي سرور و السيد محمد عيد الشافعي، بيروت، مكتبة المعارف، 1993
- 26/ عبد الوهاب الشعراني: ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبرى، تحقيق، د. عبد الباري محمد داود، القاهرة، دار جوامع الكلم، 2003
- 27/ أبو علي الحسن الكوهن الفاسي: طبقات الشاذلية الكبرى، المسمى: جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية 2005
- 28/ الشيخ عبد القادر الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق، بيروت، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1996
- 29/ الدكتور سيد حسين نصر: الصوفية بين الأمس واليوم، ترجمة، الدكتور كمال خليل اليازجي، بيروت، الدار المتحدة للنشر، الطبعة الأولى، 1975.
- 30/ الشيخ عبد القادر الجيلاني: قلائد الجواهر، تحقيق، أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية 2007.
- 31/ ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1998
- 32/ أبو حامد الغزالي: القواعد العشر، ضمن مجموعة رسائل الغزالي، بيروت، دار الفكر، 2006.
- 33/ عبد الوهاب الشعراني: ارشاد الطالبين الى مراتب العلماء العاملين، تحقيق، د. مهدي أسعد عرار، بيروت، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 2007
- 34/ عبد الوهاب الشعراني: درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1999

- 35/ عبد العزيز الدباغ: (الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ)
تأليف، سيدي أحمد بن المبارك السجلماسي المالكي، بيروت، دار الكتب العلمية،
الطبعة الأولى 1998
- 36/ المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية المجلد الأول،
بيروت دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2008
- 37/ شهاب الدين السهروردي: عوارف المعارف، بيروت، دار الكتب
العلمية، الطبعة الأولى 1999
- 38/ أبو طالب المكي: قوت القلوب، بيروت، دار صادر، د، ت
- 39/ ابن عطاء الله السكندري: عنوان التوفيق في آداب الطريق، تحقيق، د.
خالد زهري، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2004
- 40/ عبد الوهاب الشعراني: الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق
وغير الصادق تحقيق، أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة
الأولى 2008
- 41/ ابن عربي: اصطلاحات الصوفية، (عربي، فرنسي، انجليزي) اعداد
وتقديم: د. عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى 1999
- 42/ أبو القاسم عبد الرحمن اللجائي: شمس القلوب تحقيق، د. محمد الديباجي،
بيروت دار صادر، الطبعة الأولى 2003
- 43/ عبد الرزاق القاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق، د. عبد
العال شاهين، القاهرة، دار المنار، الطبعة الأولى 1992
- 44/ عبد الرحمن السلمي: المقدمة في التصوف، تحقيق، د. يوسف زيدان،
بيروت، دار الجيل الطبعة الأولى 1999
- 45/ عبد الوهاب الشعراني : لوائح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية،
حلب سوريا، دار القلم العربي، 1993.

- 46/ عبد الوهاب الشعراني: البحر المورود في المواثيق والعهود، تحقيق، محمد أديب الجادر، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2003.
- 47/ عبد الوهاب الشعراني: الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية، بهامش الطبقات الكبرى، المسماة بلوائح الأنوار في طبقات الأخيار، دار الفكر، ط/ د. ت.
- 48/ عبد الرحمن بن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل ضمن سلسلة، مصادر الفلسفة، تونس، الدار العربية للكتاب، 2006.
- 49/ عبد الله الأنصاري الهروي: منازل السائرين، بغداد، مكتبة الشرق الجديدة، 1990.